طه بونيني

عندما ينزلُ القمر

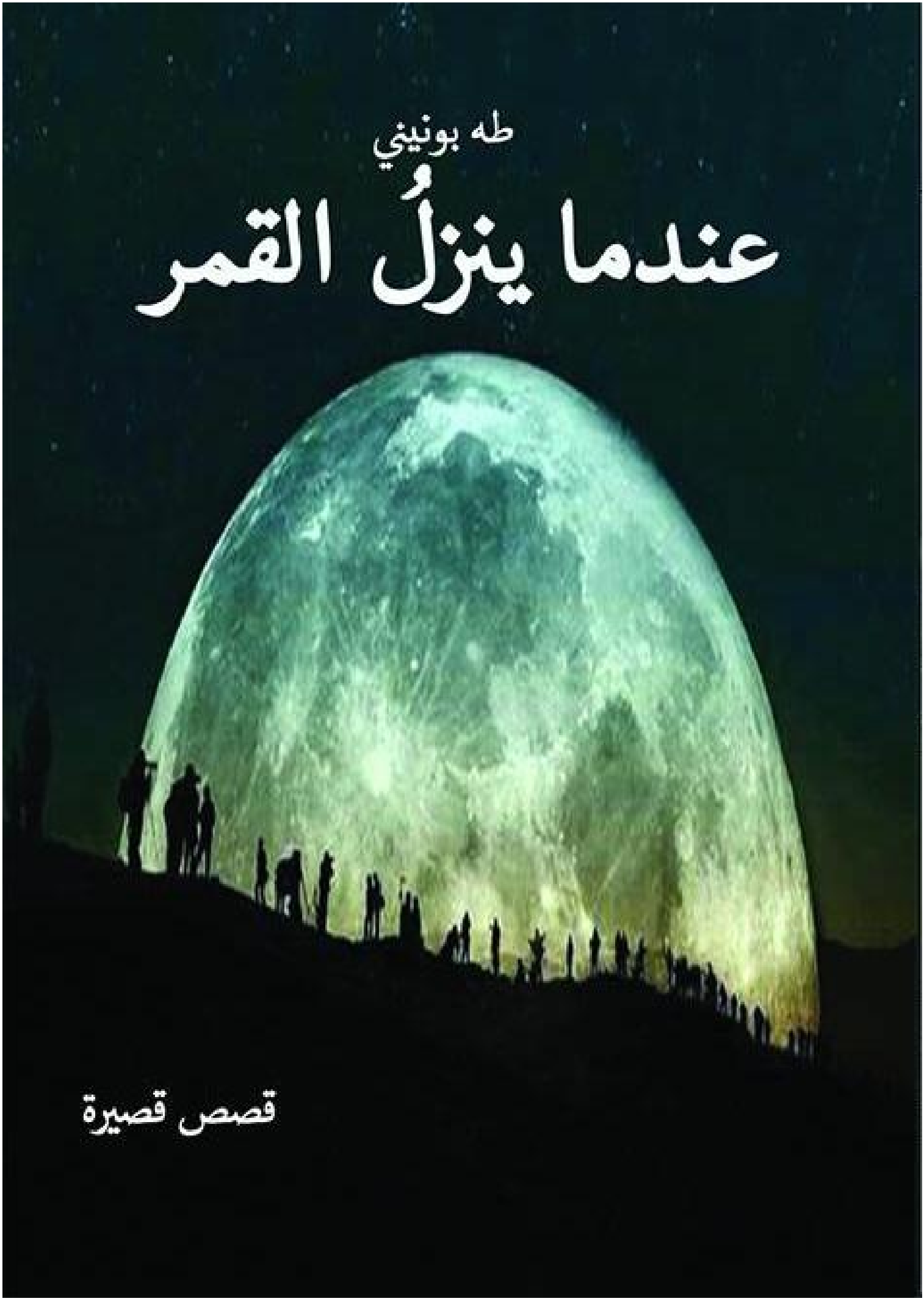

قصص قصيرة

طه بونيني

عندما ينزلُ القمر

قصص قصيرة

الإيداع القانوني السداسي الثاني 2016

ردمك: 978-9931-615-54-5-

المثقف للنشر والتوزيع

العنوان : رقم 11 شارع الاستقلال - باتنة – الجزائر

الهاتف: 0675497386 الفاكس: 033852049

البريد الالكترونيElmouthakaf2@gmail.com

الطبعة: الأولى.
تصميم وإخراج: سميرة منصوري

هذه القصص نُشرت متفرقة في المجلة الالكترونية الثقافية عود الندّ.

جميع الحقوق محفوظة لمؤسسة المثقف للنشر والتوزيع لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو استنساخه بأي شكل دون إذن خطي مسبق من الناشر

إهداء

إلى ابني صلاح الدّين...

إلى نِبراسِ البراءة الذي يُشعّ على حياتي.

نداءُ صلاحِ الدّين

تَقَوَّيتُ بابني، سمّيتُه صلاح الدّين. أردتُ اسماً يرتبط بالوطن، حتّى أوشكتُ أن أسمّيه فلسطين.

تسلّحتُ باسمه، حَمَلتُه معي رضيعا إلى كلّ مكانٍ أقصده، شعارا للسلام والنصر معا، وكأنّه غصن زيتون.

لا أراه الآن إلّا من خلال ذاكرتي التي تبعث الحياة في هذه الغيبوبة السرمدية التي أُسِرتُ فيها. لستُ أعي، لستُ أدرك أنا أحسّ فقط. وما دَريتُ بأنّي في غيبوبة لولا الضيفُ الذي يزورني بين الحين والحين.

ليس ضيفا في الحقيقة بل طيف، "طيفُ المقابر" هكذا عرّف بنفسه. ما فَتِئَ يهتفُ باسمي في همس بادئ الأمر. ولمّا طالت غيبتي واستفحَلت حالتي، صرتُ أسمعُ صوته يتردّد بوضوح وسط الصمت السرمدي.

تساءلتُ مرّة:" طيف المقابر؟ وماذا يفعل هنا؟ هل أنا في تعداد الموتى؟"

وراح الصدى يعيد صوتي، حتّى قطعه صوت الطيف:

"لا، أنت تُصارع الموت."

"الصراع" كلمةٌ مألوفة بالنسبة لأبناء فلسطين. بالأمس، كُنتُ أصارع الحياة واليوم قد اختلف الخصم فحسب.

كان السواد يخيّم على المكان الذي كنتُ مُسجًّى فيه. وخُيِّل إليَّ بأنّني ممدود على كرسيّ شارع، في حديقة ما. وكانت النجوم أمامي تغطّي القبّة السماوية كلآلئ على بساط أسود. أحسستُ بجسدي مسمّرا مخدّرا ورأسي لا يقوى على الحراك. لم يكن بوسعي أن أتطلّع في ذاتي، وكان مجال رؤيتي أمامي مباشرة. وتحوّلَ الطيفُ الذي ينتظر اندثاري أنيسا لوحدتي.

كنتُ أهيم بين النجوم، وأحيانا ينقطع كلّ شيء. ظُلمةٌ حالكة، حتّى في غيبوبتي كنتُ أغيب. بالنّجوم أرسمُ وجهَ ابني، يبكي يضحك، يحبو يمشي ويجري كشهاب في السماء. قال لي الطيف في إحدى مناجاته:

"أنا روح تسكن تقاطيع الأرض ومُهمّتي حراسة القبور."

كان صوتُه رخيما وكأنّه صوتُ حكاواتي، أو مذيع راديو. وراقَ لي ذلك الإحساس فاستعذبتُ مواصلة الحديث، وسألتُه:

"ألا زلتُ في المستشفى؟"

" نعم. هم يتشاورون حول وضع حدّ للتنفس الاصطناعي وإنهاء الغيبوبة. أنتَ هنا منذ عام."

"هل تقول عام؟!"

"نعم."

فكّرتُ مباشرة في ابني صلاح الدّين. قُلتُ وأنا أُفكِّر بصوت عالٍ:

"يُفترضُ أن يكونَ عمرُه: سنةٌ وستّة أشهر."

لم يُعر الطيف اهتماما لكلامي. وقال لي:

"لقد راقبتُ قبور الأرض كلّها، ولم أَجِد أغربَ من مقابركم."

لم أتعجّب من كلامه. فكلّ شيء يخصُّ فلسطين حالة خاصّة، وكأنّها أرضٌ يأخذ فيها الضمير الإنساني عطلةً. لعلَّ هذا الضمير . إن وُجد . لا تروق له الراحة إلّا على أرضنا. وواصل الطيف كلامه بصوتِه الرخيم:

"هنا يدفُنُ الآباء أبناءهم. هُنا يُزفُّ الموتى إلى مثواهم الأخير وتستحيل الجنازة عُرساً. هنا تمتزج الدموع مع الزغاريد."

قلتُ بسخرية وحُرقة لا تُنمُّ عن صدق: "ضيّع علينا الغريبُ طعم الحياة، فاحترفنا حبّ الموت".

ليس القولُ صحيحا، لأنّ العدوّ حَرمَ نفسه الحياة، عندما سخّر كيانه كلّه لمطاردتنا. أمّا نحن فنقاوم، والمقاومة تعني التشبّثُ بالأرض، التجذّر في أعماقها والإحساس بكلّ مكوّناتها، من السماء وحتّى باطن الأرض. نحن شعبٌ حالمٌ وآمل رغم مُناخِ اليأس والموت الذي يحوم حولنا صباحَ مساء كغُرابٍ نَحس.

وقال الطيف:

"وتلك الثقوب الأرضية، ماذا تسمّونها؟"

"أنفاق..نُسمّيها أنفاقا. انحسرت الأرض وضاقت على رحابتها، وكأنّ حركة الأرض في بلدي مدٌّ بلا جَزر، فاتّخذنا جوف الأرض المقدّسة وِجاءً لنا."

وفجأة رسَمَت النجوم خريطة فلسطين بكامل ترابها، أعجبني المنظر رغم أنّي أكره الخرائط، خاصّة تلك الخريطة الثلاثية حيث تضمحلّ أرض فلسطين من عام النكبة إلى عام 1967 وصولا لوقتنا الحالي، وتصير

بقعا صغيرة ضائعة وسط قهرِ الزمن. أخافُ إطالة النَّظر فيها، خشيةَ أن أرى البقع الصغيرة الباقية وهي تتلاشى أمام عينيّ.

تعجّب الطيف لِكلامي. هو لا يعي شيئا ممّا أقول. مُهمّته أن يهيّئني للموت لا غير، ولم يكن ينوي خوضَ هذه المحادثة الدرامية.

سكتَ وكأنّ شيئا، ممّا يُهمُّ الأطياف، قد لَفَت انتباهه. وتُهتُ مرّةً أخرى بين النجوم.

ثمّ قال لي: "الكثير الكثير من الأشخاص المهمّين يزورونك كلّ يوم. من أنت؟"

فسألته بعفوية: "ألم تعرفني؟"

ثمّ استدركتُ، فكيف عساه يعرفني؟! وأتممتُ كلامي:

"أنا لاعب الهجوم في المنتخب الفلسطيني لكرة القدم. لعبنا موسما رائعا هذا العام، أقصد العام الفائت. وكدنا نظفر بالفوز في النهائي."

والتزمتُ الصمت لبرهةٍ من الزمن، أُردّد الذكريات. ثمّ قلتُ وابتسامة ملؤها السعادة تتّسع في محيّاي مع كلّ كلمة:

"كنّا أفضل هجوم لسنوات عديدة. هجومنا في الملعب كان أفضل بالتأكيد من مجموع جهود العرب لنصرة قضيّتنا. كنتُ أكافح لرفع العلم وتشريفِه، عن طريق الأهداف التي تصيبُ مرمى الخصم كصاروخ، أو كحجرٍ يُطلقُه صبيّ نحو جندي مدجّج بالسلاح، والفرق الوحيد أنّني كنتُ أجني التصفيق لقاء ذلك.

عندما تفوز المنتخبات تعود إلى أوطانها بالنصر، ونعود نحن إلى الوطن كفاتحين. وجدتُ في الكرة سلاحي الوحيد والفتّاك. وكلّما رأيتُ عَلمَ فلسطين يرفرف عاليا في النهائيات، أحسستُ أنّ القضية تتقدّم، أنّ الأسرى سيُطلَقُ سراحهم، أنّ اللّاجئين سيعودون قريبا، وبأنّ جرحنا الغائر سيلتئم من جديد.

كنّا نكافح بطريقتنا. المهمّ أن نُسمِعَ العالم صوت قضيّتنا. الشعوب المظلومة تنحو لأجل ذلك كلّ منحى، عن طريق المقاومة أو الرياضة أو حتّى بالطوابع البريدية. المهمّ أن تُذعنَ الآذانُ اللاهية لصوتها، على ضَعفِه، وترضخَ الأعينُ المُتعامِية لنور الحقّ ولو كان بصيصاً مُتهالكا.

وتوقّفتْ فجأةً ابتسامةُ الفخر من الاتّساع وتراجعت ككلّ جهودنا في العيش بسلام، ولُذتُ بالسكوت المحمّل بآلاف الأحاديث والأحاسيس.

في فلسطين، نُحارب حينا، نصمتُ حينا وننسى أحيانا. لا حَلَّ لدينا غير هذا الثالوث."

ولاحظ الطيف الوجوم في وجهي فقال:

"وماذا جرى؟"

أبطأتُ بالردّ، لكنّي أجبت:

"حسبتُ نفسي بعيدا عن آلة الغدر الإسرائيلية لكنّها بلَغَتني، لأنَّ الشرَّ لا يميّز شيئا. كنّا نزرع الابتسامة والأمل، والمحتلّ لا تُعجِبه ابتسامتنا، أمّا آمالنا فتزرع الخوف والاضطراب في صفوفه. ولهذا فهو كيانٌ حقود، ثقبٌ أَسوَد يعترض سبيلنا للوجود."

عُدتُ لأراقب عيون السماء البرّاقة، وأفعمني التأمّل بالهدوء. اختبرت شعوراً بالراحة، ورحتُ أفكّر في مصيري كشهيد. ثمّ ساد السكون وانقطع كلّ شيء. لا أدري كم من الخيالات رأيتُ. مزيجٌ من ذكرياتي الماضية، يداعبني كالنّسائم الدافئة. أهازيج الجماهير وهُتاف المُعجبين، صفير الحكّام، جوائز الدوريات، احتفاء أبناءِ الوطن بنا، والمسؤولين كذلك...كلّ شيء طفا على السطح من جديد وكأنّ ماضيَّ يودّعني. وبعد حفلة الوداع استسلمتُ للموت.

فجأةً، بدأَت بعض الأصوات المُبهمة تتسلّل إلى عالمي الصامت، تنساب بلطف ثمّ تتوقّف. أُصغي إليها فلا أجدها ثمّ تعود، وهكذا. ثمّ أخذ السواد يتراجع، عندما بدأت خيوطٌ من الألوان الزاهية بالرقص في سمائي، فيما يُشبه الشفق القطبي.

أحسستُ وكأنّ الغرفةَ تهتزّ، واشتدّ الصوتُ، واختفى الظلام شيئا فشيئا أمام زحف النور.

سَمِعتُ قهقهات طفولية بريئة، ترجّ الصمت في غيبوبتي وتحثّني على الرجوع. ساعدني قلبي الثاني، ذلك لأنّ للبشر كلّهم قلبٌ واحد، يمدُّ أعمارهم بالحرارة والحياة، أمّا نحن فلدينا قلبٌ ثانٍ واسمه فلسطين.

يقولون: "فلسطين جرح الضمير الإنساني، وإسرائيل سرطانه، لكنّي لا آبه لما يقولون.

فلسطين عندي: قلبٌ وأرضٌ وشمسٌ وأمٌّ وقضيّة."

أيقظني نداء صلاح الدّين وعدتُ إليك يا فلسطين وما كانت غيبوبتي إلّا استراحة مُحارب.

كلماتٌ على جبينِ البؤس

بالقرب من ميناء يرصّع ساحلا جزائريا كجوهرة في جيدِ غادة، يقف شابّ يهوى البحر، يتأمّل وهو يرنو إلى العيش خارج إفريقيا. في جبهته يقدح الحماس، يتطاير الشرر، تشتعل نفسه بالحياة، ويبدو من عينيه المتوقّدتين بأنّه لن يستسلم حتّى ينال ما يريد.

على جنبات شارع طويل فوضوي الملامح في مدينة جزائرية، ترتسمُ المحلّات والمقاهي والمديريات. على الرصيف طفلة، تحمل في يدها دمية، وبيدها الأخرى تشدّ يد أبيها الذي يمشي الهُوينى بدون هدف. علّمها أبوها الحروف فصارت تقرأ اللّافتات وهي في سنّ الحضانة. وقد أصبحت تُحسِن تهجئة أسماء المحلّات والمقاهي والمديريات...

علّمها بعض الكلمات، أما المعاني فيتكفّل بتعليمها الزمن. بدأت بعض الكلمات تزحف على بياض عقلها، ونقاء سريرتها، كما تكتسح الغيوم صفحة السّماء. لم تُدرك الطفلةُ بَعدُ معنى الفوضى والزحام والتلوّث والضجيج. هي لا تعرفُ القانون و الجزاء والعقاب..لا تعِي معنى اليأس والإحباط والغشّ وغيرها من العيوب التي يعرفها الكبار بالممارسة أو الأزمات...باختصار هي لا تزال تكتشف الحياة.

لقّنها أبوها سورة الفاتحة ولقّنتها بعض القنوات أناشيد الفتيات. أمّا الحياة فتطبع في نفسها الصغيرة آثارا عميقة. تتراكم الأجزاء الصغيرة، والتجارب الضئيلة، واللحظات العابرة، لتصنع فيها طبعا وشخصية، كما تتراكم الحفريات والأتربة في طبقاتٍ لتصنَعَ جيولوجيا الأرض.

في ذلك الشارع، تحت اللّافتات يمشي شيخٌ مرهَقٌ قد وَخَطَ الشّيبُ شعره، ورَسَت التجاعيد في صفحة وجهه منذ أمد، ورسمت أشكالا وخطوطا تعبّر عن الوهن وانقضاء الحياة. وفي جبينه، تصرخ تقاطيعٌ بأعلى صوتها وهي تقول: "فات القطار!".

...آه...آه من الأسمال التي يرتديها، و التي تأبى كلّ يوم أن يرتديها!...ألوانها تُرهقُ الأذواق، رائحتها تدعو الذباب المُتخم إلى مائدة العفن، ومنظرها يحشِدُ الأطفال الساخرين الذين يقتلون الوقت والبراءة بكلّ طريقة ممكنة.

يمشي الشيخ وعلى شفتيه المرتجفتين تتردّد كلمتان: "مَا نْعَاوَدْشْ". وكانت هاتين الكلمتين تتكرّران كلازمةٍ في سمفونيةٍ رهيبة. يلقي خطوة أو خطوتين في ضَعف، ثمّ يتردّد صدى الكلمتين من جديد. يُطلقهما بصفة آلية وهو يدبُّ على ظلال الجدران. لقد عَهِدَ أن يقولها خائفاً من كلّ شيء، وقد تحمّل مسؤوليةَ أخطاءِ البشر كلّها، فقط ليسلَمَ من

الأذى! وقد خانه وعيُه منذ زمن، فصارت هذه الكلمات تتردّد وحدها على لسانه، يلوكُها كلّما أحسّ بالخوف.

نظر الشارع المثقل بالمقاهي واللّافتات وسمع تلك الكلمات التي تذوب وسط الضجيج. أنصَتَ إلى تلك الآهات المتعبة وتمعّن جيّدا في ذلك الجسد المتهالك الذي يختبئ هُزاله وراء الأطمار البالية.

لم يفهم أحدٌ ذلك الشيخ، ما عدا الشارع. هو الوحيد الذي يعرفه، منذ أن رماه ابنه في ذلك المكان الذي يأوي العجزة. ذلك المكان الذي ينزوي فيه الأحياء في انتظار الاندثار. يخرجون في النّهار يمشون كالموتى الأحياء، ويجوسون خلال الشوارع كالأشباح، حتّى أنّ النّاسَ لا يكادون يرَونَهم!...ثمّ يعودون في المساء، وكأنّ الحياة تخجل منهم، فتخبّئهم في المراكز.

مشى ذلك الشيخ الذي ورِثَه الحاضر من الماضي والذي بدا كحبّةٍ تنزلقُ وحيدة وقد انفرطت من عِقدِ الزمن. أمّا الشارع الذي اختفت معالمه وسط فوضى البشر، فيبقى ماثلا في مكانه، ينتحب ويتأسّف لهذا المخلوق الذي اضمحلّت الحياة بين تجاعيده وهيئته.

مشت الطفلة بجانب أبيها ونظرت إلى الشيخ بعينيها الصغيرتين اللّتين تقدحان بالفضول. أمّا أبوها فراح يُتمتم، وهو يسأل العافية، وقد أشاح

بوجهه عن تلك الذّات الذابلة، وأَغَذَّ السّيرَ قائلا لابنته: "اِمشِ..أسرعي!".

دنت الساعة من منتصف النّهار ودقّت نواقيس الوجبة الوسطى في ذهن هذا الرجل المشتّت، فانتفى العالم ولم يبقَ غير كلمة واحدة: "الخبز".

وسط الشارع، وعلى طول الطريق، تُولد الحفر والممهّلات، تتعثّر السيّارات، ترتفع الأصوات، ويتألّم الشارع لكنّه يحمد الله لأنّ الطفلة لم تستطع قراءة شيء على الطريق لأنّه لم يُكتب "حُفْرَة"، وإلّا استهلَكت المسكينة كلّ حروف "الحاء" و "الفاء" و "الراء"...أمّا "التاء المربوطة" فسيُفضُّ رباطها عندما تسقط في الحفر.

واصلت الطفلة مشيها وهي موصولة إلى أبيها كقاطرة يشدّها القطار، حتّى رأت الشيخ يقترب، ونظراتٌ حيّةٌ غريبة تعلو وجهه، حتّى خُطاه صارت أسرع، تتجاهل الأطفال الذين يتبعونه. كانت عيناه الشاخصتان تنظران نحو أبيها. وعندما اقترب أكثر منهما، قال كعادته وبصعوبة:"مانعاودش.."، لكنّ الأب واصل المشي حثيثا، والدمعة تترجرج في مآقيه. وراح الشيخ يطارده وهو يجرُّ كيانه المضمحلّ، والأب يسحَبُ ابنته التي تنظر إلى كلّ ما يجري كزهرة متفتّحة. يسحبها أبوها

كي لا تتعرّف على البؤس والشقاء في سنّ النسيم والياسمين، لكن كيف عساه ينجح، والبؤس يوجدُ حيث يتواجدُ البشر...

وفجأةً، على وقع تلك السمفونية الرهيبة، تغرغرت عينا الأب، ثمّ انهمرت الدموع كالسيل لا تتوقّف وهُو يمضي في طريقه، والشَّيخ يطارده كشبح مخيف.

وكان الأطفال السَّاخرون لا يزالون وراءه يزيدون جسمه المكدود معاناةً فوق معاناته. دار الرجل إليهم وطاردهم بقوّة. عنّفهم وصرخ في وجوههم والدّمع يتطاير من وجنتيه. لقد انفجرت مكبوتات نفسه كالبركان ولم يكن أمامه غير شلّة من الأطفال المحرومين من شعاع الطفولة. وأفرَغَ في الشارع المثقل بالهموم صرخاته...

اختفى أولئك الأطفال وراحوا يُلاحقون مجنونا كان يرتع بجانب مقهى مأهول بالعاطلين والهاربين من أعمالهم...أمّا الشيخ فوقف ينكأ الجراح، وكأنّ كيانه الذي يتفكّك يوما بعد يوم، أبى أن يواصل اللحاق بحلم ضائع وابن صائع كان بالأمس ابنه. والآن صار مجرّدَ رجلٍ يرافقُ ابنته على طول الشارع، ينظر إليه كما ينظر الغرباء، يشتري الخبز ثمّ يغادر.

توقّف الشيخ، تردّد وهو ينظر نحو ابنه ثمّ أطلق زفرةً طويلةً وقال:"مانْعَاوَدْشْ.. يا ولدي!". سمعها الرجل، فتجمّد في مكانه، طأطأ رأسه وأجهش بالبكاء.

وبينما يقف الشيخ أمام ابنه وحفيدته وسط الشارع، توجّهت عيون السُوقة الجالسين على أعتاب المقاهي، تلقي سهاما حارّة. وراحت ألسنتهم تلهج وهي تصف المشهد وكأنّهم مجموعة من النقّاد يشاهدون مسرحية.

في تلك اللّحظة التي شهدت ميلادَ حفرة جديدة، وتعثّرت فيها السيّارات وصَدَحَت فيها أبواقُ الشاحنات وغصَّ فيها الرّصيف بالغوغاء وعجّ فيها الهواء بالضوضاء وثاني أوكسيد الكربون...في تلك اللحظة، وقف الرجل يسترجع الماضي البعيد، كان حينها صبيّا يتعلّق بعباءة أبيه. وقد كان يحبّ اصطحابه في جَوَلَاتِه وهو فخورٌ به. كان هذا الشيخ في الماضي يضع عمامةً فوق رأسه، ولم تكن العمامة يومها وصمة عار في مدننا شبه المعاصرة ومجتمعنا شبه المتحضر، كما لم يكن الضجيجُ صوتا تستسيغه الآذان. واليومَ صار أبوه شيخا وهن العظم منه وسَامَهُ الخسفُ والهوان!

في ذلك الوقت، لم يكن في الشارع مأوى للعجزة وكانت العائلاتُ الكبيرة محشورةً في البيوت الصغيرة وقد كوّنت مع جيرانها عائلات أكبر تتشارك كلّ شيء، القصاع والقدور، الملح والسكّر، الأفراح والأحزان كخلية نحل كبيرة تعيش في وئام وانسجام. أمّا اليوم! فلا الفيلات ولا العمارات ولا الصروح المشيّدة صارت كافية عندما استحالت القلوبُ أطلالاً خَرِبَة...

لم يُقدِم قبل ذلك اليوم، شخصٌ من المدينة بوضع أبيه في دارٍ للعجزة، حتّى فعلها هذا الرجل. وقد كان تطليقُه لزوجته الأولى أوّلُ حلقات هذا المسلسل. فتسبّبت زوجتُه الثانية في طرد أبيه وتهجير ابنه. وصار بفعلته هذه في نظر الجميع مثل قابيل وقد دشّن هذا الجرم الشنيع.

لم تتعرّف الطفلةُ على معنى كلمة "أخ" أو "جَدّ"، لأنّها لم تعرف أخاها من أبيها ولا جدّها.

وقد شاهدَت اليومَ أباها يبكي والشيخُ أمامه ماثلٌ كهرمٍ يأبى التلاشي تحت دثار الزمن. وفي لحظة انكسار واستسلام، عانق الابن العاصي أباه الشيخ. في تلك اللحظة التاريخية، بكى الشارع وسَخِر القدر وتعجّبت أفواه المتفرّجين على أعتاب المقاهي.

ومَشَى ثلاثَتُهم على الرصيف الذي يزدحم بالبشر وتتوقّف فيه السيّارات غير آبهة...وقد بدت على وجه الشيخ شبهُ ابتسامة وهي تُشرق على السُّمرة الداكنة التي طبعتها الشَّمس والأحزان. وذرفت عيناه الغائرتان دموع الفرح. وبعد أن عاد الشيخ واستجمع الرجل شظايا ضميره، بحثَ عن ابنه الهائم. لكن ليست كلّ الأمراض تُشفى ولا كلّ الذنوب تُغتفر، ولا تتماثَلُ كلُّ جراحِ الضمير للشفاء.

ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى تعلّمت الطفلة معنى كلمة "جدّ" ولم يكن هذا المعنى ناصعا. أمّا كلمة "أخ" فلن تُدرك معناها حتّى يعود أخوها من أحضان الغُربة.

مَصِيرُ يَوم

كانت أشعّة الشمس تُطلُّ من الأفق وتمتدّ لتغازل السَّماء الخجولة. كان خيط السكوت يخيّم على الشوارع النَّائمة، والنّاس يدبّون فوقها دبيبا، وكأنّما يخافون أن ينتهكوا حرمة الصباح. خَطا النّاس خطواتهم الأولى في هذا اليوم الجديد، في سكون نفس وراحة بال وكأنّ الله قد أودع فيهم من الدّعة والهدوء ليفتحوا صفحة جديدة في حياتهم المنهكة بالذكريات.

انتهى الليل وانسحب من الدّنيا كما ينتهي الطبيب من مزاولة عمله. وكان النّاس جُلُّهم في نظر الليل مرضى وقد استسلموا للكرى كما يستسلمون للدواء، ثمّ ينهضون في الصباح وقد شُفِيَت ضمائرهم ونفوسهم، وتجدّدت عرى الحياة فيهم، وامَّحى ذلك العهد السقيم في ذواتهم. ويبدأ اليوم من جديد كعُمرٍ جديد، ليكتب فيه الإنسان سطرا أو سطوراً أخرى في هذا العالم المضطرب، وهكذا دواليك.

في ذلك الحين، في شارع شعبي من شوارع مدينة جزائرية، جلس شيخٌ في مدخل مقهى. وقد كان يضع على رأسه طاقية صوفية، ويلبس ما يدعوه الجزائريون جلّابة أو قشّابية، اتّقاء البرد الذي كان يداعب وجهه

قبل أن يتسلّل إلى المقهى. ولم يلبث كثيرا حتّى أتى ابنه بفنجان قهوة ساخن معبّق بماء الورد. فالتفت الشيخ الذي كان ساهيا إلى ابنه وقال: "شكرا ياسين". وعاد يراقب الشوارع الحالكة وهي تتشبّع بالنور شيئا فشيئا، وإلى الطرقات شبه النائمة، وقد بدأت السيّارات تُقلقُ منامها. وإلى الوجوهِ نفسِها التي تعوّد عليها كلّ يوم، تمرّ عليه، تلقي التحية وتمضي في طريقها:" صباح الخير عمّي دحمان..السلام عليكم عمّي الحاج". لقد تعوّد المارّة، هُم كذلك على عمّي دحمان الذي يجلس أمام مقهاه. وقد صار هذا المقهى العتيق بفعل السنين مَعْلَماً من معالم المدينة. كان هو نفسُه يتولّى أموره في الماضي. يعصر القهوة، يحضّر الشاي، يجلس إلى الزبائن، ويبعث الحياة في أركان المقهى. وكان يعينه ابناه سعيد وياسين. ومنذ سنوات، ذهب سعيد وهو الابن البكر، إلى الصحراء للعمل في شركة بترولية وبقي ياسين وهو الابن الأصغر يرافق أباه. ومضت السنين، وتقاعد الشيخ عن العمل وناب عنه ياسين، ومنذ ذلك الحين وهو يرتكز إلى هذا الركن كلّ صباح، يراقب الشارع ويرحّب بالزبائن.

لكن في ذلك اليوم، بدا ياسين ضَجِراً من عمله الرتيب الذي يتكرّر كلّ يوم، وقال للشيخ بعدما تردّد كثيرا عن الكلام:" لقد سئمتُ العمل، أحتاج إلى عطلة.. ألا ترى يا أبي، أنّي منذ كان عمري أربعة

عشر سنة وأنا ألازمُ هذا المقهى لا أعدوه ولا أفارقه. وأنا اليوم شابٌّ في الثلاثين ولا يزال حالي اليوم كحالي في الرابعة عشرة. لقد استطاع أصحابي في ظرفِ شهورٍ وجيزة، الخروجَ من شرنقة الفقر والذلّ إلى حالة البذخ والرفاهية.

ثمّ سكت ياسين لحظةً يستجمع أنفاسه وشتات أفكاره ليدعم حججه، وهو يبدو شبه عازم على المضيّ في هذا الطرح إلى الرمق الأخير ثمّ قال:

. كلّ شباب الحيّ تبدّلت أحوالهم. انظر إلى سمير ابن البقّال، قد أعانه أبوه واشترى سيّارة يعمل بها كسائق سيّارة أجرة والآن هو يريد فتح دكّانه الخاصّ بعد أن جمع مالا لا بأس به، وهاك جارنا مراد المقاول، البارحة فقط كان زميلا لي في المدرسة، والله يعلم أنّي كنتُ متفّوقا عليه في كلّ المواد. والآن هُو صار مقاولا ناجحا يَعُدُّ الملايين كما أعُدُّ أنا الدنانير...لكن الفرق بيني وبينه، أنّه لا يخشى دخول عالم الأعمال، فكما يقول المثل:" الثروة تفضّل الجريء".

بدا الشيخ وكأنّه في عالم آخر، لكنّه كان ينصت بإمعانٍ لحديث ابنه. ولم يكن كلام ابنه غريبا عليه، فقد أَلِفَ الاستماع إلى شكاوى الشباب وتذمُّرهم وتبرُّمِهم من الواقع والتنصّل من حالتهم الاجتماعية، ويريدون

لو تتغيّر بين عشيّة وضحاها. وقد كانت أمانيهم متماثلة متشابهة وكأنّها قد استُنسِخت بعضها من بعض: المال، السيّارة الفاخرة، الأعمال الخاصّة، الملابس الأنيقة، وتلك الأماني الأخرى التي تندرج تحت ما يسمّونه ب"الاستمتاع بالحياة". وكان يضيقُ عمّي دحمان بهذه الأحاديث وبأصحابها الذين تعوّدوا على زيارة ابنه ياسين، فتراهم يجلسون إليه ساعات طويلة يحْشُون عقله بذلك الكلام الفارغ الذي طار برأسه. ولم يكن يستطيع الشيخ بطبيعته الهادئة أن يجاريهم أو يداريهم أو يُقنِعهم بأيّ شيء، فقد كانوا كقوّة كاسحة من قوى الطبيعة، رغم أنّ هذه القوة لم تكن مسخّرة إلّا للكلام، أمّا العمل فكان من نافلة القول.

أمّا اليومَ وبعدما تراكمت كلّ تلك الأحاديث، جاء دور ياسين ليبلّغ أباه مدى ضجره من الحياة، ومن الروتين القاتل الذي يجترّه ليل نهار.

أنصتَ الشيخ إلى حديث ابنه وهو يواصل جسّه لنبض الشارع. ثمّ استدار وقال في صوت عميق: "ماذا تقول عن عَمَّار؟". وأَومَأَ إلى محلّ مقفل في الجهة المقابلة من الشارع.

"مَن عمّار؟!تقصدُ بائع الكتب القديمة؟ ما به؟!"

"أليس شابّا ناجحا؟"

سأله الشيخ وهو يحضُّ المادّة الرمادية في رأسه، داعيا ابنه إلى التفكير، في محاولة شبه يائسة ليجعله يرى الحقيقة.

لقد كان عمّار شابّاً في منتصف العقد الرابع. ولعلّ ذلك الهندام البسيط، وتلك الهيئة المتواضعة واللحية غير المتناسقة، سببٌ ليَنفِيَ عنه الكثيرون صفة الشباب، ليُدخلوه في خانة فضفاضة بين الشباب والكهولة. وقد كان من الأشخاص الذين يميل النّاس إلى تجاهُلهم.

وأجاب ياسين:

"ناجح؟!..هل تدعو ب"ناجح" شخصاً أمضى حياته في بيع الكتب الصفراء القديمة التي أكلتها العثّة؟ ولعلّه مثلي في كثير من النّواحي، فقد عمِل مع أبيه منذ الصغر، وقد انفرد الآن . مثلي كذلك . بالعمل مكانَ أبيه."

"أتراه يتضجّر من حياته، ويتبرّأ منها كما تفعل؟ اسمع يا بنيّ، إنّ النّاس في هذه الحياة يَجرُون وراء شيء واحد، حتّى ولو توارى هذا الشيء وراء مغرياتٍ كثيرة. إنّهم يلاحقون هذا الشيء بوسائل مختلفة، ويشترونه بعملات متعدّدة، ويقتفون أثره في طرق وسُبل عديدة. هذا المطلب البشري المقدّس هو السعادة. ولقد راقبت مِن هذا المكان أشخاصاً كُثُرُ وهُم يغادرون أماكنَ عملهم في المساء، ورأيتُ وجوههم وتطلّعتُ

في سَحَنَاتِهم، وقرأت في ملامحهم أحوالا كثيرة، ولم أجد جوابا شافيا فيما لمحتُ من مشاعر متناقضة، لكنّي وجدتُ أنّه لا علاقة بين...

وقطع كلامَ عمّي دحمان وُصولُ مراد الذي أوقف سيّارته ودلف إلى المقهى. ألقى السّلام، جلس إلى المشرب وطلب القهوة كعادته. لم يكن في وجهه مكانٌ للابتسامة، بل قد بدت تكشيرة عميقة، تتبدّى واضحةً في تقاسيمه، ولم يستطع الليل أن يمحُوَها. كلّ من يتفرّسُ ذلك الجبين المتغضّن، يظنّ صاحبه تعيسا بائسا، لكن هندامه كان يدلّ على الأناقة والشباب وكلّ تلك المعاني التي يحبّذها ياسين وأصدقاؤه.

لم تكن قسمات مراد معبّرة لياسين مثلما كانت سيّارة المارسيدس، بل كانت هذه السيّارة بفخامتها حُجةً دامغةً وسببا كافيا ليزداد إيمانا بمبتغاه. وهكذا فقد تبدّد كلام الشيخ كالسراب، واختفى كما يختفي الضباب خوفاً من أشعّة الشّمس. تلاشى ذلك الحديث الرزين عندما لمعت السيّارة الفاخرة في عَينَي ياسين. عندها برز له من جديد حلمه واضحا جليّا لا ينازعه شكّ ولا ريب.

وبعد دقائق معدودات أتى عمّار بصورته البسيطة التي لا تثير الاهتمام والفضول. سلّم على الشيخ وجلس بمقابله وطلب كعادته كأس حليب وقطعة حلوى. وعلى عكس مراد فتقاطيع وجه عمّار كانت تعكس

راحةً وسكونا يطفوان على وجهه ويتغلغلان في ثنايا نفسه. لم يكن فارع الطول ولا قصيرا، ولم يكن مفتول العضلات ولا نحيلا، بل كان لا يزيد عن إنسان عادي يلبس قميصا أحمر قاني، وسروالا أخضر من الكتّان وسترة لا تَقِيه البرد. وكان عمّار في ذلك اللّباس لا يعاني من شيء ولا يتحرّج أن يُعيد نفسه في تلك الصورة كلّ يوم.

لم يفهم أحدٌ هدوء عمّار فوَسَمه البعض ببرودة الأعصاب، ووصفه آخرون بصاحب "القلب البارد" ووَصموه بشتّى الألقاب والنعوت.

كان من المعتاد، أن يأتي مراد وعمّار نحو الساعة السابعة صباحا ليتناولا القهوة. يدخل مراد هو الأوّل وهو يسابق أنفاسه، فيبلع القهوة في جرعات سريعة، ثمّ يضع النقود ويغادر وكأنّ نداءً مستعجلا قد استدعاه، ليصعد إلى مكتبه في البناية المقابلة. وقد احتلّ الطابق الأعلى منها، أمّا في الطابق الأسفل فكان دكّان عمّار. وكان الفرق واضحا بين الطابق الأعلى والأسفل وكأنّ تلك البناية المؤلفة من طابقين لم تكن بناية واحدة. فترى الحجارة العارية والجدار المهترئ والطلاء الذي أتت عليه الرطوبة في الطابق الأسفل، والطلاء الجديد والديكور الدعائي الجميل في الأعلى.

خرج مراد في حركات رشيقة سلبت أنظار الزبائن. كلّ شيء فيه يدلّ على الحظ الوافر حتّى صرير المفاتيح كان يلعب دورا صغيرا في ذلك المشهد. وقبل أن يخرج من المقهى ضغط على مفتاح السيّارة بلمسة لبقة كحركة من حركات "جايمس بوند"، ذلك البطل السينمائي. فتح تلك السيّارة الألمانية الرابضة أمام مقهى عمّي دحمان وأخرج حقيبةً مثقلة بالأوراق ثمّ صعد إلى مكتبه.

أمّا عمّار فقد شرب كأس الحليب وتناول قطعة حلوى بمذاق الشوكولاتة كالمعتاد، بتركيز وأناة وطول بال وكأنّ أمامه العمر كلّه ليتمَّ تلك القطعة. وبعد أن فرغ، قامَ ودفع الثمن ثمّ ذهب إلى دكّانه، فتحه واندفن بين الكتب يرتّبها وينفضها من الغبار.

وفي الأعلى، كان مراد يحضّر بعض الوثائق لدخول مناقصة لعلّه يظفر بمشروع جديد. لقد كان شريكه في العمل يتّصل به بين الفينة والأخرى، ليستعلم عن الملفّ الذي يجب تسليمه في ذلك الصباح. وراح مراد بذلاقة لسانه يجيبه ويهدّئ من روعه، ويطمئنه بأنّ الوثائق جاهزة وكلّ شيء تحت السيطرة، لكنّ القلق الذي استبدّ به وجبينه الذي كان يتفصّد عرقاً في عزّ الشتاء، كانا يميطان اللثام عمّا يعتريه من حالة الضغط الشديد الذي يفتِكُ بأعصابه.

وعلى الثامنة، وصلت السكرتيرة وكانت امرأة متقدّمة في السنّ. أَلْفَت مراد غارقاً في الوثائق، يعبثُ بالأرشيف والسجلّات وحالما رآها صبّ عليها جامّ غضبه وراح يسألها عن بعض فواتير العتاد، والشهادات الدراسية للمهندسين العاملين لديه ليُثرِي بها الملف. فذكّرته بأنّ معظم العاملين لم يضعوا ملفّات كاملة تحتوي شهاداتهم الدراسية، وبأنّها لم تكن مطلوبة منهم أصلا، فطلب منها استدعاءهم للحصول عليها، وهكذا فعلت. وبعد ساعة، بدأ العمّال يتوافدون وقد تركوا مواقع عملهم في المشاريع الكثيرة وهم حاملين شهاداتهم. وفورَ أن دخلوا سألوا السكرتيرة عن موعد تقاضي أجورهم وطلبوا اللقاء بمراد. وحاوَلَت هي بكلّ الوسائلِ صدّهم عن ذلك، غير أنّ إرادتهم كانت أكبر، وتدفّقوا إلى مكتبه كالسيل العرم.

وكان الوقت أمامه لحضور المناقصة ينقضي والموعد يكاد ينصرم، فاضطرّ أن يوافق على كلّ طلباتهم. ثمّ هبط مسرعا إلى سيّارته وتركهم عند السكرتيرة. ركب المارسيدس واتّجه نحو مصالح الولاية وهو يسابق الريح. وكان المكان بعيدا فاختار أن يسلك طريقا سيّارا يتجنّب به دخول المدينة، فيلتفّ حولها ليصل إلى مقصده، ودَفع بالمحرّك إلى أقصاه وهو لا يرى أمامه غير ذلك المكتب المعني باستقبال الملفّات. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتّى باغتَهُ حاجز للدرك الوطني وعنصراً منهم يشيرُ إليه

بالتوقّف. طلب منه وثائق السيّارة، فأعطاه إيّاها وهو يندب حظه ويتجرّع مرارة غيظه بعدما أيقن أنّ الموعد صار أمرا مقضيا.

وأكمل مراد طريقه إلى تلك المديرية بعدما أرجع إليه الدّركي وثائق سيّارته، فوجد اللجنة قد مضت في حالها والموظّفين قد غادروا. فعاد إلى مكتبه حانقا عابس الوجه. وفي الطريق اتّصل به شريكه فأخبره بما جرى فهاله الأمر واشتدّ النقاش بينهما واحتدم السجال حتّى أقفل الخط. وعندما وصل إلى مكتبه، كان لا يزال بعض الموظفين في مكتبه، فكظم غيظه وهدّأ من روعه وراحَ يكذب على العمّال ويلفّق لهم الوعود ويجتهد في تحفيزهم بالكلام المعسول، ونجح في ذلك وبعد أن غادروا دخل إلى مكتبه. وقد كان شريكه في انتظاره، وعندما رآه ماثلا أمامه استغفر وأحجم للحظة وكأنّه رأى شيطانا، ثمّ جلس وراح يتلقّى منه صنوف العتاب، وكعادته راح يراوغ شريكه ويناوره حتّى تمكّن منه. وظلّ كذلك بين كذبٍ ومداراة إلى أن نادته السكرتيرة وأعلمته بأنّ زوجته تتّصل به.

احتار مراد لهذا الاتّصال، فحَمَل السمّاعة وقال بدون تفكير وقد تغضّن وجهه واكفهَرّ:"لماذا تتّصلين؟!". فردّت عليه بصوت مستسلم ضعيف: "أنسيتَ أنّ عليك إيصالي للطبيبة لأجري الفحوصات؟"، فطلب منها تأجيل الموعد والفحوصات وأقفل الخطّ.

لقد توقّف مراد عن الغداء في المنزل منذ امتلأ مكتبُه بأكداس الملفّات، وصارت ساعاتُ اليوم الأربعة والعشرون لا تكفيه.

وعاد لقاؤه بزوجته لقاءً دوريا صامتا ينصرمُ جزءٌ منه أمام مائدة العشاء (وهي دقائق قليلة)، يُمضيها مراد في التأوّه والتلوّي من التعب، أمّا الجزء الأكبر وهو ساعات الليل الطويلة المظلمة فلا حظّ لزوجته منها إلّا الشخير. أمّا ابنه فقد كان من المفروض أن يدخل الحضانة، ثمّ أُلغي الأمر بحجّة أنّ مراد لا يملك وقتا لاصطحابه إلى الحضانة وإعادته منها.

وفي الأسفل في محلّ الكتب القديمة كان يقضي عمّار أغلب وقته في القراءة، وبين الحين والآخر يأتي زبون ولا يغادر إلّا ومعه كتاب وابتسامة. فكما كان يُذهلُ الحاجّ عبد الغفور أبو عمّار زبائنه في الماضي، بحفظِه لكلّ الكتب ومواضيعها، كذلك صار يفعل عمّار.

لم تكن الكتب مصفوفة على الرفوف، بل كانت تتراصّ كاللّبِنَات، وتعلو كالجدار. فإذا دخلتَ لم تكد ترى جدران المكتبة ومساحات كبيرة من الأرضية، إلّا ما يتيح الحركة في المحلّ.

أمضى عمّار وقت الغداء مع أسرته، وبعد فترة قيلولة قصيرة عاد إلى الدكّان وتوجّه إلى كتاب، كان قد بدأ قراءته في الصباح. لقد بدا متلهّفا للقراءة، جلس على كرسيّه الذي لا يقلّ قِدما عن معظم الكتب،

وخرج من عالمه ليتّصل بعالم آخر. فإذا أتى زبون اختطفه منه، واقتلعه من شِباكه بصعوبة بالغة. وبعد خدمة الزبون يعود مسرعا وكأنّ الكتاب مغناطيس يجذبه إليه برباط وثيق لا يراه النّاس بالعين المجرّدة.

كان النّهار في منتصفه والشّمس تعتلي صهوة السّماء. والطرق قد ضجّت بالسيّارات والجوّ قد طغى عليه دخّانها، والأرصفة قد غصّت بأشخاص تطبع وجوههم النظرات الحائرة التائهة.

كان المارّة يتدافعون ويتزاحمون في تلك الأرصفة وهم يتوجّهون إلى مقاصدهم كعدّائين لا يفارق أعينهم خطّ النهاية. وكان بينهم من يهيم على وجهه من غير قصد، ولا يُسرعُ إلّا تلبية لتلك الرغبة الملحّة التي تسري في عروقه والمسمّاة: "القلق"، والتي لن تهدأ حتّى تقتات من عُمرِهِ وتسلّمه لقمة سائغة للردى.

بعد أن غادر شَريكُ مراد، بقي هو في مكتبه بين الملفّات ينعم باستراحة المحارب، التي كان يمضيها وهو يتناول قَضَماتٍ من ساندويتش أعدّه في المكتب، دون أن يستسيغها أو يجد لها طعما. مراد هو بلا شكّ إنسان لا يضيّع الوقت، يقتنص الفرص اقتناصا. هو خيّاط بارع يُصيِّر خيوط القماش الرديء إلى حرير ويحيك منه ما يشاء. هو خيميائي لامع يحوّل الحديد الصدئ إلى ذهب، ثمّ يسكبه في أيّ

قالب يريد. هو ألمعيّ يتقن فنون الشطارة، مارد يُحسن الخروج من رماده، مناضل يعرفُ كيف يصارع للبقاء.

لقد حقّق الكثير وهو لا يزال شابّا: عقارات، مشاريع تدرّ الأموال، سيّارات، وأراضي فلاحية، لكن لسبب أو لآخر لم تستطع كلّ تلك الثروات أن تملأ قلبه أو تريح نفسه وغدا كقطار سريع لا يتوقّف، وقودُه الوقت وسِكّتُه لا تعرف لها نهاية.

وكان النّاس ينظرون إلى هذا القطار فاغرين أفواههم، مشدوهين مُعجبين وهم لا يدرون أنّ هذا القطار لا يتوقّف عند محطّات الحياة التي يعيشون في أكنافها.

كانت الملايير في حسابه البنكي تنطح الملايير، والعقارات تزاحم العقارات، والمشاريع تتوسّع وتتعدّد. وقد تأصّلت في نفس مراد حيل وتقنيات في الحصول على المشاريع، فكان يقترح في المناقصات أقلّ الأثمان، ولهذا كان يظفر بالمشاريع الكثيرة وبعدما تصير هذه المشاريع بحوزته، يتماطل في إتمامها فيضطرّ إلى إطالة الأمد بطرق متعدّدة حتّى تتعدّى مواعيد التسليم بأشواط. ونظرا لاختصاص مقاولته في أشغال الكهرباء، فقد كانت بعض القرى المعزولة تقبع في الظلام، ويرزح سكّانها في العتمة، وهم ينتظرون الفرج.

وصار من المألوف أن تصله بين الوقت والآخر إشعارات للتأخير، يداويها بحيلٍ أخرى كأن يكتب للوالي، أو غيره من المسؤولين، مبرّرا ومعلّلا ذلك التأخير، أو كأنّ يرسل بعض العمّال إلى موقع المشروع المتأخر، ليتظاهروا باستئناف العمل، ثمّ لا يلبثون كثيرا، حتّى تهدأ سورة الغضب لدى المحتجّين ومن ثمَّ يغادرون ويذرون الموقع قاعا صفصفا كما كان.

ومضت الأيّام ولم يتبقّ لدى مراد غير هذه المظاهر البرّاقة وهي تتكرّر في أعين النّاس. فكان إذا أراد أن يُسرّ أو أن يطيب خاطره، ينظر إلى نفسه في مرآة غيره. فإذا خلا لنفسه تذكّر الشركاء الذين يطاردونه، والسلطات التي تلاحقه، والمواطنين الذين يَدعُون عليه، والزوجة التي تذوي في فراش المرض، والطفل الذي لم يعُد ينتظره كما ينتظر الأبناء أباءهم. يتذكّر كلّ هذا ويتمنّى لو كان شخصا بسيطا حقيرا وأن تزول كلّ همومه ومعها كلّ أمواله. كانت تلوح له هذه الأماني كسحابات عابرة في لحظات صحو الضمير ثمّ سرعان ما تندثر فلمعان المال وفخامة السيّارة وإغراء السطوة والجاه ليس لها دواء عندما تكون الروح فارغة.

في تلك اللحظات القليلة العابرة، كان يدنو من شرفته ويراقب الشارع وينظر إلى حركة النّاس المضطربة، ويغبطهم على بساطتهم. يحسِدُ المعلّم

في الابتدائية، والحلّاقَ في محلّه والاسكافي في قارعة الطريق، وساعي البريد فوق درّاجته، وجاره بائع الكتب القديمة في قلعة الورق..باختصار كان يحسد كلّ النّاس، الذين قد تحرّرت أعناقهم من الأغلال التي يرسف فيها. وكان يتمنّى أحيانا وقتا مستقطعا في هذه الحياة، يستطيع فيه استرداد أنفاسه، لكن الحياة ليست مباراة في كرة اليد.

في مساء ذلك اليوم، واصل عمّار شغفه بكتابه، وخدمته للزبائن القلائل الذين يدخلون بدافع الفضول في بادئ الأمر ثمّ يقعون سريعا في غرام الدكّان ويفتتنون بسحر الكتب وجلدها الفريد ورائحة ورقها الأصفر التي تشبه رائحة الأطلال. وكانت الجولة في المكتبة أشبه برحلة سياحية في أغوار الزمن البائد، أو نافذة تطلّ على عوالم الثقافة وخلاصة دأب الإنسان على هذه المعمورة.

وراح يقرأ فقرة من ذلك الكتاب، يلامس الكلمات ويكاد يرى الصور التي ترسمها. وبين الحين والآخر ينطلق إحساسه الفيّاض ليُسكنه في لحظات خالدة بين تلك الصور فيخيّل إليه أنّه غادر هذا العالم ليلتحق بعالم خيالي خالٍ من الضوضاء والأنانية والنفاق والفوضى، عالم مليء بالمعاني والأفكار والمشاعر المرهفة.

أغمض عينيه وراح يتدبّر في بعض الأسطر التي خلبت لبّه وسلبته مخيّلته، وراح يسمع الكلمات تدور في رأسه وكأنّ راوياً يتحدّث في نفسه:

"انطلق الزروق يمخر النهر، وعلى متنه سائح وساكن محلّي من الهنود الحمر. هو يعرف هذه الأدغال كما يعرف الشابّ جيبه. وراح ذلك القارب الخشبي الذي لا يزيد عن شجرة مجوّفة، يرتجّ وكأنّه سينقلب بين لحظة والأخرى بينما يداعب الهندي المياه بمجداف صغير، وبعد أن تعدّيا ذلك النهر الهادر وضَعُف تيّار المياه، قلَّ خوف السائح الشابّ وانخفض مستوى الأدرنالين في دمه، فراح يتطلّع في صفحة الطبيعة، في الغابة التي تمتلئ بالحياة، يتشرّب الصفاء الذي يعمّ الأجواء، ويطلق حاسّة سمعه تجوب المكان حرّة طليقة. هذا صوت الكروان وهذا نداء القردة، وذاك صياح النسور وفي تلك الجولة الماتعة ظهرت بعض الغزالات وهي تطلّ بقاماتها الرشيقة وقدودها الممشوقة من بين الأشجار ومِن ثمَّ تقترب لتنهل من ماء النهر القراح..."

بعد تلك الجولة في المكسيك، عاد إلى مكتبته والبسمة تملأ تقاطيع وجهه. وبعد برهة من الزمن سمع عمّار صوتاً قادماً كوقع خطى سريعة أو هرولة وهي تقترب من المحلّ، وما لبث أن رأى ابنه الصغير قد أتى يجري ثمّ ارتمى عليه. وضع عمّار الكتاب وكأنّ جاذبية ابنه تغلّبت على

جاذبية الكتاب، واستسلمت رغبة القراءة الجامحة أمام براءة ذلك الملاك الصغير. دخل الطفل تلك المكتبة العتيقة فبعث الحياة في أركانها الخربة، كما تفعل الروح في الجسد.

وراح ذلك الطفل ذو الثلاث سنوات، يرسم في الورق وجلس الجدّ والأب يتحدّثان. لقد كانت السّماء حينها تشهد عراكا بين السحب السريعة وسهام الشمس التي تخترقها حينا وتخيب أحيانا. أضاء عمّار أنوار الثريّا التي تتدلّى من أعلى السقف وتلقي بأضوائها الخافتة والتي بدت كشمعات تنتحب وسط الخراب...وبدا الجوّ في المكتبة سحريّا، أنوار الثريّا الخجولة توقظ الكتب النائمة، سهام الشمس المنتصرة تلامس ألوان البلاط المخضّب بألوان الماضي. طفل يرسمُ ويوقّع توقيعاته الأولى في تلك الأوراق البيضاء بياض صفحته وسريرته. ومن الحين والآخر، تخترق السقف حركةٌ دائبةٌ وصوت يتردّد في أرجاء المكتبة، من الطابق الأعلى.

وكان عمّار وأبوه متعوِّدَين على ذلك. دخل مراد أو خرج من مكتبه، دلفت السكرتيرة سريعة تحمل وثائقَ للإمضاء، صرخَ مراد في الهاتف وهو يحدّث عاملا، هتَفَ وهو يهلّل فرحا لاستقبال بشرى، وهلمّ جرّا.

لكن الحمد لله فالبناية كلّها مبنية بالحجارة الكبيرة الصلبة، تشهد جدران المكتبة على متانتها. أمّا الطابق الأعلى، فقد تمّ ترميمه، حتّى اختفت مظاهر التاريخ منه، واضمحلّت تحت معاول البنائين. واستُبدلت بالرخام، والسيراميك، وبالألوان الصارخة التي تناديك لتحملق فيها رغم أنفك، أو رغم عينيك.

كان النهّار ينقضي بسرعة في عالم مراد. ويمضي بتؤدة وهدوء عند عمّار.

اقتربت الخامسة، شدّ عمّار يد ابنه البضّة الطريّة وخرج من المكتبة. اقترب من الطريق المنهك وراح ينظر يمينا وشمالا وابنه يفعل مثله ودخلا مقهى عمّي دحمان. وكان المقهى مكتظّا بالمرهقين عصبيا والمستنزَفِين نفسيّا، والذين يحاولون النسيان على مضض، وأولئك الذين يملَؤُون الوقت كما يُملأُ الفراغ.

تعوّد عمّار أن يَشْهدَ نفس الصورة في المقهى كلّما أتى في هذه الساعة. جماعةٌ أَلِفت الجلوس في ركن من أركان المقهى، تهوى تقطيع لحوم البشر. جماعةٌ تجلس هناك، تحبّ الحديث في السياسة، تُبدع وتتفنّن فيه، رجلان كهلان يجلسان في آخر المقهى، ينهران الشحّاتين الذين يدخلون فرادى وجماعات من الحين والآخر، ثمّ يلعنونهم بعد ذلك.

أقرأهم عمّار السلام ثمّ جلس في مكانه المعتاد. وأتاه ياسين بطلبيته الروتينية، حليب له، وعصير لابنه، وقطعتي حلوى. وضع ياسين الحليب، تلقّى الشكر من عمّار كما تعوّد ثمّ ذهب وشعور غريب يرافقه. تذكّر كلام أبيه الحاج دحمان، وذكره لعمّار وكأنّه في نظره مثالا للنجاح.

راح يتمعّن فيه بينما يعصر القهوة. وبين الفينة والأخرى يختلس نظرة نحوه. وراح يرمقه كما ينظر إنسان هاوي إلى لوحة تشكيلية من الفنّ التجريدي، لا تثير خطوطها البسيطة العَجَب، ورغم ذلك هي تُعدّ لوحة فريدة، مُبدعها وحده يدرك السرّ في تميّزها.

"في مقياس المال والأعمال والنجاحات لا يساوي عمّار جناح بعوضة. أين النجاح إذن؟ هل أبي الشيخ يهذي؟"

هكذا كان يخاطب ياسين منطقه وعقله. فمن منظوره هو وأشكاله، النجاح بعدٌّ آخر. ثمّ سرعان ما دلف مراد مثقل الحركات، وتهالك على ذلك الكرسيّ العالي بجانب المشرب، بمقابل ياسين، زميل دراسته القديم. طلب كأس ماء ليتناول حبّة أسبرين. ابتلعها ثمّ نظر إلى ياسين، وقال له متعبا وتحت عينيه يظهر كيس داكن: " أتمنّى لو كانت حياتي بسيطة مثل حياتك".

لم يصدّق ياسين ما سمعه، فقال له مستفسرا: "ماذا؟!"

ولم يُعِد مراد كلامه، لأنّه أحسّ بأنّ نفسه قد خانته وبأنّ الصورة التي يرسمها النّاس له في أذهانهم صارت في خطر. قال مراد لياسين: "الله يعاونك". ومضى في حال سبيله. استرجع ياسين تلك الكلمات وأخذ يتأكّد ممّا سمع لتوّه بوضوح. فقد تمنّى مُراد المقاول المليونير الذي لا يعوزُه شيء، أن يعيش في جلد ياسين ابن الحاج دحمان القهواجي، الذي أمضى جلّ حياته بين هذه الجدران التي يعلوها السُّخام. لكنّ سرعان ما ظهرت قطع اللغز جليّة متكاملة، تدلّ إحداها على الأخرى.

وكان عمّار لا يزال أمامه، يداعب ابنه الصغير ببساطته المعهودة. لقد كان يبدو أمامه شفّافا ككتاب مفتوح. وكما صار النّاس لا يعبؤون للكتب، عادوا لا يعيرون هؤلاء الأشخاص الشفّافين اهتماما.

نظر ياسين إلى تلك القسمات الوضّاءة وفَهِم كلام أبيه الشيخ، وصارت الكلمات التي قالها في ميلاد هذا اليوم، كاملة المعنى واليوم في انقضاء.

على ضِفاف الجُنون

رُحت أتأرجح بتفكيري بينما أجوس خلال الشوارع متجوّلا:

"لماذا لا يكون المفكّرون أمثالي إلّا معتوهين ومرضى؟ أليس في الدنيا مجالٌ لمن يستثمرون في الفكر، كالمجال الواسع الذي يجده من يستثمر في تجارة أو في مقهى أو حتى في بيع "الفول السوداني"؟ لم أجد لزورقي الشراعي المُخاطر مرفأً، فاتّخذتُ عُبابَ البحر الهائج مرفئي. ربّما لأنّ اليابسة هي خطري المحدق. تلك اليابسة التي يبَس فيها خيالي، ويتحجّر فيها عقلي، ويتبع فيها ذهني أنماطا هي كالقوالب. إنّ هذا المرفأ لَأخطرُ من لجج البحر.

لماذا أَنشُد كل هذا التعقيد والصعوبة؟ ربّما لأن الثوري تشي غيفارا قال يوما: "إذا كان الطريق صعبا فالصعوبة هي الطريق" والطريق التي أبتغيها صعبة. الهناء الكاذب لا يغريني فمرحبا بأزمات النفس وشطحات الخيال وصداع الرأس وارتفاع الضغط. ماذا يساوي صداع الرأس أمام الهاوية التي يجري الكثيرون نحوها غير آبهين. البعض معصوب العينين والبعض يقصدها متعمّدا والآخرون يقفون على شفاها داعين النّاس إليها."

كان الجوّ باردا، رحتُ أمشي وأنظر إلى الأشخاص من حولي. كلّهم مشغولون في أحاديث الطقس والزيت والسكّر. يتحدّثون وهم واقفون، ينفثون البخار من أفواههم وهم يثرثرون حول أحوالهم البائسة، يضحكون ويقهقهون، ثمّ يفترقون أو تراهم ينقادون كالمغانط نحو المقاهي. وبعد ساعة أو تزيد، ينتشرون كالفراش المبثوث نحو الأسواق حيث يجدون التجّار والخضّارين في انتظارهم بالمرصاد. أليس الإنسان عبثٌ وحياتُه هدر؟ ثمّ فتمعّني يا نفسي في التجّار أليسوا جنسا بين البشر والوحوش؟!! دعيني من هذه الحياة الفارغة المفرغة من المعنى. أحمد الله لأنّي أعيش وحدي على الرغيف والأرز واللبن.

مررت على أب وابنه الصغير يمشيان في تؤدة، مشية الأب والابن المعتادة. الأب في العقد الرابع، سماته ليست غريبة عن ذاكرتي، والابن لا يربو عمره على الأربع سنوات. كانا يمشيان سَعيدَين، الوجهان منبسطان، الملامح تَشِي بالراحة، وحركة الجسد لا تدلّ إلّا على عفوية مطلقة وكأنّه لا سابق لهما بهذه الحياة المضطربة الشرّيرة. لا يحملان لها ولا للنّاس ضغينة. على عكس غالبية النّاس الذي يَمشُون مضطربين، صُدروهم مُوغِرةٌ بالحقد على الأيّام السوداء التي وشَمت أرواحهم بأشكال جهنّمية.

الابنُ صفحةٌ بيضاء، والأب سجلّ مفتوح على العالم. لا أراه إلّا تجسيداً للمثل القائل: الجهل نعمة.

حدجتهما بعين ثاقبة فاحصة تحاول أن تفهم وتعي وتستعلم. علّني أصطاد بعضا من فلسفتهما في الحياة. ومع أنّي قرأت معظم الفلسفات، فعقلي متفتّحٌ على أي فلسفة جديدة تساعدني على تقبّل الحياة. ولو كان الجهل مكوّنا أساسيا في وصفة السعادة فمرحبا بالجهل.

أشفقتُ على الطفل الذي لا ذنب له في الحياة. أتى قسرا إلى دنيا تكاد تنتهي صلاحيتها، لكن أباه رغم رُشدِه، لا يكادُ يُضمر أو يُبدي شيئا ممّا يعتمل في ذهني من حسرة على الحياة.

مررت بجانب الرجل بوجهي الشَّاحب، نظرتُ إليه كأنّي أصوّرُه ككاميرا متحرّكة. بدا لي الرجل مرتاحا في قشّابية صحراوية تتبدّى أكداسٌ من الملابس تحتها كالطبقات الجيولوجية. كان يبدو ككارثة جمالية ومصيبة فنيّة ورغم ذلك كلّه، كان تصرّفه متماسكا هادئا لا يشوب صَفوَهُ ولا يكدّر مزاجه شيء.

أمّا الطفل فرغم البرد كان رأسه عاريا ووجنتاه حمراوان رغم بشرته الدّاكنة. يلبس سروالا مرقّعا وسُترة تَشِي بقِدَمِها، كأنّما هي قطعةٌ من الزمن الغابر.

تجاوزت الرجل وابنه فلَمَس الأب في تحديقي نحوه شيئاً مريبا، لكنّه وبعفويته لم يوجِس منّي خِيفة وتابع جرّه لابنه بينما يتوجّه مباشرة نحو المقهى الذي اعتاد ارتياده. وجلس إلى طاولة في مدخلها وقبل أن يومئ للنّادل بإشارة، أتاه بقهوة وعصيرٍ لابنه.

اخترت طاولة قريبة منهما وجلست. أخرجتُ جرائدي المتخمة بالأخبار، كألغام تنسف آمال الصباح وابتسامات الإشراق. طلبتُ قهوة مضغوطة جدّا، وواصلت تحديقي من زاوية لا تثير الشكوك.

وما إن مرّت لحظات حتّى غدا الداخل للمقهى والخارج منه ينادي الرجل بوجه ضاحك: "عبدُه كيف حالك؟".. "عبدُه أنت هنا؟!"..
ثمّ ينهالون على ابنه بالتقبيل، ثمّ أدركتُ أنّي الوحيد الذي لا يعرفه. لم ينبُس "عبدُه" ببنت شفة وبقيَ جالسا يرتشف قهوته بثقة كاملة، بينما يتناوب الزبائن على الترحيب به والمزاح معه، كأنّه رمزٌ أو شخص مشهور. بيدَ أنّ ملامحه ظلّت صامتة واكتفى بإيماءة خفيفة يتفضّل بها بين الحين والآخر.

وتواصل الهتاف والنداء، هذا يمزح وهذا يضع أمامه قطعة حلوى وذاك يخبره بأنّ قهوته على حسابه. أمّا "عبدُه" فاكتفى بالنّظر إلى ابنه الذي كان يبدو أمامه كأسطورة إغريقية، ينعكس على وجهه الطفولي أشعّة الشّمس الذهبية بينما ينساب العصير في حنجرته الصغيرة، وظلّ يردّد ناظريه بين وجه ابنه وبين فنجان القهوة.

في تلك اللحظة تذكّرتُ. لا بدّ أنّي نسيت، فحياتي مرّت كدوّامة خرجتُ للتوّ منها. أطلقت الحياة سراحي عندما أحالتني إلى التقاعد. حياةٌ أمضيتها دارسا للفلسفة ثمّ مدرّسا لها. تذكّرتُ أن "عبدُه" مجنون، نعم لطالما رأيته يمشي وهو يزمّر بيديه كأنّما يعزف على "النّاي"، ويُصدر أصواتا مضحكة. لكنّه يبدو اليوم هادئا برفقة ابنه. وتساءلتُ: "هل برئ من الجنون؟"

مرّت دقائق ونهض "عبده" يرافقه ابنه، ورجعا أدراجَهما يمشيان الهُوينى كمِلِكَين على الزمن. وبعد بضع لحظات جاءني النّادل فدفعت ثمن فنجان القهوة، وسألته: ما قصّته؟ فقال:" عبده المسكين، الذي يسكن في آخر الشارع مع زوجته وأمّه. ألا تعرفه؟.. يهدأُ جنونه عندما يكون برفقة طفله".

ونهضت من مقعدي وقلت في سرّي: "كنتُ أظنّه جاهلا وبأنّ جهله نعمته، لكنّه مجنون مثلي غير أنّه قد وجد جزيرة تُؤويه وهي "الأبوّة" أمّا أنا فلا يبدو في أفقي خيالُ جزيرة.

القَـبو

" العَالَمُ يَتَدَاعَى، يَهوِي سريعاً نَحو هُوةٍ سَحِيقَة."

قالت سميرة التي تشاهد الأنباء وقد أتمّت لتوّها تحضير الغداء، وهي تتحدّث إلى زوجها الذي يبدو منشغلا بتحضير السَّلَطة وهو يُدَندِن.

"هل أصغيتَ إلى نشرة الأخبار؟"

تسأل سميرة، وهي تريد إقحام وليد في الموضوع بالقوّة. وأجاب:

"الحياة فنّ، أفضّل التفكير فيما يُريحني. هذا خير لي وللعالم."

وأخذ يقطِّع حبّةَ جزر بسرعة فائقة، وطبع كلامه بغمزة خفيفة تلاءمت مع ابتسامة عريضة، وكأنّه يفتخر بتقطيعه السريع للجزر على طريقة الطهاة المحترفين.

وبقيت زوجته عابسة دون حراك تراقب زوجها الذي يبدو أكثر انتعاشا من زهرة لبّت دعوة الربيع.

كان يُتبِّل السَّلَطة برشفاتٍ من زيت الزيتون، الذي شارك في استخلاصه. فلأعمامه مزرعة واسعة في الريف تقف مئات أشجار

الزيتون فيها وهي تحرسُ الأرض. تَشرئبُّ أعناقها لتتطّلع إلى الأفق وهي تتشمّمُ عليل النسيم.

رجع إلى عادته القديمة، تلك التي فقدها يوم اغترب. قبل ذلك، لم يكن ينصرم الخريف دون أن يترك وليد بصمته أثناء الجني والعصر.

خلال موسم الجني الفائت، رافقته زوجته إلى الحقل لتشاركه حفل الزيتون. كان ذلك أيّاماً بعد زفافه، وتخيّرَ الحقول مكانا يمضي فيه شهر العسل، حيث شذى الطبيعة ونسيم الروابي.

بعض العادات التي يتذكّرها وليد طفلا ثمّ شابا يافعا، زال طعمها في الوقت الحالي ولم يتبقّ منها إلّا الجزء الأوتوماتيكي، والبعض الآخر زال كليّة.

لم يكن يزور الوطن كلّ عطلة كباقي المغتربين في الضفّة الاخرى للمتوسّط، بل كلّما سنحت الفرصة.

"شأنُه غريب هذا الرجل"، كان هذا رأي غالبية النّاس، خاصّة شباب حارته الذين يتحيّنون الفرص للهجرة. كثيرٌ من يفرّ بجلده إلى أوربا وكندا ومنحوسٌ هذا الذي قرّر العودة الآن.

أمّا جلُّ المغتربين فهكذا يتصرّفون: يجوبون العالم، يتعلّمون خلال ذلك أضعاف ما يتعلّمونه هنا. وإذا عادوا إلى الوطن، تجدهم يتخيّرون المكان والزمان الذي يُمضون فيه أوقاتهم. فلا تراهم إلّا دائبين كالنحل العامل وهو يختار أطيب ما في الروضة. أفضل المأكولات التقليدية، أجمل المناظر الطبيعية، أحسن الفنادق والمنتجعات السياحية. فكلمة "مغترب" في عقلنا الباطن تعني مباشرة، شخصٌ محظوظ نعامله أفضل ممّا نعامل أنفسنا، صائد ماهر للسعادة، في كِلتا ضفتي البحر المتوسط. وعندما يُنهي المغترب تزوّده "بالكسكسي" و"البقلاوة" و"المقروض" وتمر "دقلة نور" وكلّ حلويات البلد. وينهي جمعه للتحف الأثرية والقطع المصنوعة يدويا مثل اللوحات الرملية، و"وردة الرمال"، يحلّ موسم الهجرة إلى الشمال من جديد.

لكن لا يحتوي رصيد ذكرياتنا أخبارا كثيرة عن أناس عادوا من ديار الغربة، ليستقرّوا في الوطن، إلّا نادرا.

وليد من أولئك الأشخاص النادرين. ولأجل ذلك حامت سحابة الغموض حول رأسه. سميرة زوجته هي التي افتتحت مزاد التشكيك والحيرة. ساورها الشكّ منذ الخطوبة، وعندما سألته: "لماذا عدتَ من الغربة وقد تبوّأتَ منصبا ونجاحا؟". أجابها: "ألا يشتاق الناجحون إلى أوطانهم؟"

لكنّ هذه الإجابة لسبب ما، لم تفِ بالغرض. فهو لم يكن مجرّد مغترب عادي يتسكّع في الشوارع، يعمل في مطعم أو في شركة ليُحصّل أجرا زهيدا يسدّ به حاجته. لا بل هاجر إلى فنلندا حيث أتمّ دراسته هناك إلى أن حصَل على الدكتوراه في العلوم الاقتصادية، ونال منصب أستاذ. وليس من عادة أصحاب الأدمغة الرجوع حيث يضيع علمهم وجهدهم سدى.

ما يميّز سميرة أنّها من الأشخاص الذين لا ينصلح حالهم حتّى يصيبوا كبد الحقيقة. فوجهها مرآة للعواطف التي تأبى الاختباء. جواب كهذا كان لينطلي عليها في سابق الأيّام، أمّا اليوم فلا، وأغلب الناس يتّجهون في الاتّجاه المعاكس، وقد تراءت أمارات الجفاف والتقشّف.

ثمّ فشهر العسل الذي أمضَياه وسط الحقول، كشف النقاب عن أمرٍ لا مراء فيه: "وليد سعيد برجعته للوطن". وهذا ما يزيدها حيرة، فمن جهة أخرى، يبدو زوجها غير متفاعل البتّة مع ما يحدث في الوطن وفي العالم من أحداث.

وقالت تحدّث نفسها: "يا رجل الاقتصاد ما سرّك؟"

جلسا معا على طاولة مُعدّةً بأناقة لتأكل العين قبل الفم. أمرٌ آخر لا يسَعُ وليد إخفاؤه، ألا وهو شغفه بالفنّ والجمال. هذه إحدى السمات

التي علِقت فيه وصارت سمة مميزة. بعد عشرين سنة في فنلندا، عادت كلمات مثل "التناسق والجمال والتلاؤم..." قاموسَه اليومي.

" يا سميرة، طبق "شوربة فريك" الذي طبختِه اليوم رائع، ولمسة البقدونس جعلته طبقا خليقا بأن يكون لوحة فنيّة. أنا أستحي أن آكله".

"كلْ يا وليد كفاك تملّقا. بعد لحظات ستلحس آخر قطرة منه وستترك الطبق قاعا صفصفا."

تناول وليد أُكلتَه وكأنّه يستمع لأوبرا للموسيقار "فاغنر"، حيث تتداخل الموسيقى مع الأساطير. كانت تقاطيع وجهه المنبسطة تكشف هدوءه واسترخاءه. وكانت سميرة تضحك، كلّما رأته يتلذّذ الطعام مغمض العينين."

كانا يستمتعان بجلسة هنيئة عندما بثّت قناةٌ موجزاً إخبارياً، وراحت أنباءُ العنف تصدر من التلفاز كقذائف تصيب القلب والعواطف في مقتل. وسرعان ما تشنّجت ملامحها وانقبض صدرها، وتغضّن جبينها. ورغم أنّ ذلك طبيعي بسبب هول المشاهد، إلّا أنّ حساسيتها المفرطة لها ماضيها.

منذ أزيد من ثلاثة أعوام، توفّت صديقة سميرة بطريقة تراجيدية في حلب. وقد كانت صديقة طفولتها مولعةً بسوريا وحضارتها، زارتها مع زوجها مرّات عديدة إلى أن ارتحلا ليعيشا فيها قبيل الحرب.

وبعد الحادث بفترة قصيرة، تبيّن أنّ سميرة قد أصيبت بارتفاع في ضغط الدم. ومن وقتها وحالُها الصحّي في كفّ عفريت.

وكحاله دائما عندما يراها منشغلة بأخبار العنف في التلفاز، يطلب منها أن تمرّر له صلصة المايونيز أو شيئا آخر كي تتحرّك، ويقوم هو بتغيير المحطّة التلفزيونية. وعندما تعود بالصلصة يستقبلها بموضوع جديد، على شاكلة هذه العبارة:

" تذكّرت، لقد اشتريتُ لك الحاجيات التي طلبتِها ووضعتُها في غرفة النّوم."

وتردّ سميرة بطريقة آلية وذهنها لا يزال مع الأنباء: "حسنا، شكرا."

ثمّ قالت لوليد وهي تتناول "الأسبرين":

" لماذا تتردّد كثيرا على غرفة التخزين في القبو؟"

وأجاب مُتذاكِيا: " أتَفقَّدُ ما ينقصنا من حاجيات."

" أجبني بصراحة، فأنتَ تنزل كلّ مساء، وتبقى هناك أزيد من ساعة."

أحسّت سميرة بأنّها لم تظفر بعد بالحقيقة، ولم تغادره بعينيها. وظلّت كذلك حتّى أذعن لإصرارها:

"أَلِفتُ القراءة في الهدوء."

أجاب وليد ظانّا منه بأنّ جوابه قد وفّى وكفّى، لكنّ صراحته لم تزد الطين إلّا بلّة. وراحت سميرة تتساءل في نفسها: "من هذا الشخص الذي يترك كلّ حجرات المنزل الهادئة وينزوي في القبو؟ ثمّ فحيّنا من أهدأ الأحياء."

وقبل أن تتمكّن سميرة من إضافة واحدة من تعقيباتها المشهورة، وكأنّها إحدى شخصيات "أجاثا كريستي" اللواتي تَسعَيْن إلى إيجاد الحقيقة. نهض وليد يغنّي ويُدندن بينما يقضم حبّة تفّاح أخضر. وقبل أن يبتعد ناول سميرة حبّة تفّاح وقال: " خذي جُرعة صحّة".

هزّت سميرة رأسها متبرّمة، وقد اكتفت من وصفاته الصحيّة، ونصائحه الإيجابية. هذا كلّ ما تعرف عنه، ضباب يخفي وراءه الكثير من الغموض. لم يكن أيّ شيء ممّا يجري حقيقيا بالنسبة لها، كمسرحية

تعدُّ هي ممثّلة أساسية فيها ومتفرّجة في الوقت نفسه. وكان لزاماً أن يتحدّدَ دورُها، فإمّا أن تكون أو لا تكون.

ومن شِيمها أنّها كثيرة التحاور مع ذاتها فيما يشبه "محاورات أفلاطون"، معتمدةً الطرق النفسية والفلسفية، وهكذا صار وليد موضوعا للاستدلال والاستقصاء، ممّا يعني أنّه في الميزان.

ظلّت جالسة والفلك يدور حولها وكأنّها مكانَ الشمس في مركز المجموعة الشمسية. وراحت تجترّ تلك العبارة التي سمعتها منذ يومين إثر مكالمة هاتفية، وقد تجرّأت للتجسّس عليه من باب القبو: " إنّها في أزمة، وأنا قد عدتُ لأجلها...ماذا؟..ماذا تقول؟ لا لن أُخبرها فلتكن مفاجأة لها."

وأخذت تتساءل مصعوقة: "تُرى مع من يتكلّم؟ من هي التي عاد لأجلها؟ ولمن يحضّر المفاجأة؟"

ولا أدري لماذا اتّجه ذهنها مباشرة للخيانة، ربّما لأنّها لم تتلقّ أيّ مفاجأة منذ ذلك الوقت.

كان يخلط السكر في قاع فنجان القهوة العبق برائحة البنّ العطرة، أمّا هي فكانت تتساءل:

"أليس هذا الشخص عينُه الذي كان مريضا قبل الاغتراب؟ يتردّد على الطبيب كلّ أسبوع. وقد كان يشكو من ذلك النوع من الأدواء الذي يصيب النّفس."

ولولا مذكّراته، التي تسمح لنفسها بالنبش فيها كمن يدرس الحفريات، لما أدركت هذه الحقيقة، التي لا يعرفها غيرهما. ظلّ سنتين وهو يزور العيادة، فقط ليفهم كيف يحقّق التوازن في حياته.

أمّا الآن فيبدو أكثر اتّزانا من راهب بوذي. فهو لا يتناول عقارا مهدّئا، وليس من أولئك الذين يمارسون اليوغا أو التأمّل، وليس حتّى فيلسوفا أو شخصا يتّبع نظاما حياتيا خاصّا. والشيء الوحيد المريب هو ذلك الوقت الذي يمضيه في القبو.

يومياته في مجملها عادية: يلقي محاضرة في الجامعة، ثمّ يعود لبيته حيث ينعم بالراحة. يمارس الرياضة كأساس صحّي من أسُسِ الحياة التي يتبعها. يجالس زوجته، ويخوضان في شتّى المواضيع، عدا السياسة وما يُعطَف عليها من منابع الأسى.

وفي كثير من الأحيان، حين تنزعج سميرة من هدوئه المفرط، تسأل نفسها: "ألا تثير مواضيع البلاد والعباد والأمّة والعالم اهتمامه؟ إذا كان الجواب: لا، فأنا إزاء معضلة، وإذا كان الجواب: نعم، فالمعضلة أكبر.

فهو إذن يتفادى الحديث لأنّه لا يثق بي، كمن يخشى بطش المخابرات وأجهزة الأمن. هل لعملي السابق كصحفية علاقة بالأمر؟"

وهكذا تجرفها استنتاجاتها وتخميناتها، بالأمس كانت هذه التخمينات ذات فائدة لمّا كانت تُنتج مقالات. أمّا اليوم، فصارت رهينة ضغط الدمّ، وحبيسة الشكّ الذي يلعب بأوتارها ويعصف بمزاجها كريح عابثة.

وبعد تلك الأسئلة السقراطية، والتحليلات الصحفية اهتدت لجواب سهل يرضي هواها:

"حتما! لم لا يكون واحدا من الملايين الذين يعيشون كل يوم على حِده، مطبّقين نظرية ديل كارنجي: "دع القلق وابدأ الحياة". أو لعلّه لا يأبه البتّة. كنت أتوقّع أن الأزمة التي تعيشها البلاد تلد الهمم. لكن للأسف تمخّض جبل الأزمات وولَدَ مجموعةً لا حصر لها من الفئران."

جلست سميرة تنظر إلى زوجها حانقة، وككلّ النساء فتحت ملفّات عديدة في ذهنها وراحت تفكّر فيها كلّها: ملفّ القبو، وملف الخيانة غير المحسوم، وملفّ الهدوء المريب. وراحت تضع علاقات رياضية بين كلّ منها، وفي الناتج: ارتفع ضغط الدمّ.

استدار وليد واخترق سريرتها كأنّما يتفحّص قلبها بأشعّة إكس. وعرف أنّها إحدى تلك اللحظات العابسة، حيث يصير العالم خاليا من الحدائق والفراشات وتنتصر الظلمات على الأنوار.

هرع وليد إليها بأداة فحص الضغط، وناولها الدواء باسماً. لم تدرِ كيف ذاب القلق وسط دفء الرعاية والاهتمام. كوب ماء وابتسامة زرعا من جديد قوس قزح كالذي يرتسم بعد أن تبتسم السماء.

ورغم الأجنحة البيضاء التي كادت تحملها بعيدا عن أرض الأحزان، إلّا أنّها لم تجد بديلا عن الحيرة.

وظلّت الأفكار السوداء تتلاعب بعقلها، إلى أن سمعا دقّ الباب، وكان ذلك صديقُه "سعيد" أستاذُ اللغة العربية. فاستقبله وليد وأدخله قاعة الضيوف.

تكوّمت سميرة على الكنبة، ولبثت في مكانها ساهمة مهمومة، إلى أن رأته قادما نحوها. اقترب وليد، وضع كتابا مغلّفا في ورق الهدايا وقال لها: "هاكِ هديّة يا حضرة الصحفية.

" ثمّ عاد ليودّع صديقه، وترك سميرة تتقلّب في حيرتها ثمّ فتحت الهديّة وكان المحتوى كتابا بعنوان: " **بدائل التقشّف. حلول اقتصادية**" وبخط مائل مزخرف كُتب اسم زوجها في الأعلى.

ولمّا عاد وليد نظرت إليه مشدوهة، ونظراتها تختزل سؤالا كبيرا: "من تكون؟!"

وفتحت الكتاب وقرأت الإهداء: " هذا الكتاب عُصارة وقتٍ أمضيتُه في القبو...أهديه إلى زوجتي" وقلّبت صفحات الكتاب واطّلَعت على الفهرس، وهي لا تزال تحت الصدمة. ثمّ اتّجهت بنظرها من جديد نحو وليد، ونظرت إليه ولسان حالها يقول: "وما سبب هذا البرود واللامبالاة؟"، وفَهم عنها ما تريد. وكان لجسدها لغةً تُبينُ عن ذاتها وتُفصحُ عن طويّتها أحسن من اللسان. فقال لها:

"لم أفاتحك في بعض المواضيع إشفاقا بحالك، وقد وصّاني أبواك بذلك من قبل رأفة بك."

وضعت سميرة الكتاب وتهالكت على الكنبة. وأخيرا خلعت عنها رداء الكآبة والريبة. ورغم أنّ أحمال الزمن الصعب لا تزال ثقيلة، إلّا أنّ الحلّ بدا متألّقا كإشراقة شمس: "هموم العالم تشفيها ابتسامة حانية، وأنوار قد أشرقت من ظلمة القبو."

لكنّ طبيعتها الثائرة والحائرة أبداً لا ترضى حتّى ونفسُها راضية، وسألته:

"لقد أدركتُ الآن أنّ المفاجأة هي لي، لكن من هي التي عدتَ لأجلها؟". أجابها وكأنّه يغنّي:

"بلادي".

صابر بلا حدود

سقط ذراقُ حمامة متعبة على عباءته البيضاء.

لم يحرّك ياسر ساكنا، رغم سخونة تلك اللطخة التي بدت واضحة تزعج بياض العباءة. لم تشغله رائحتها العفنة ولم تبعث ألوانها المقززة الاشمئزاز في نفسه. وبدا هو والشجرة الوارفة التي يرتكز عليها والظلّ الظليل الذي يستلقي على فراشه، والحشائش التي تتناثر من حوله..بدا كلّ ذلك كلوحة لا تتجزّأ.

كان يكتفي في تلك اللحظة بقيلولته المقدّسة التي ينعم بها كلّما آوى إلى شجرة الصنوبر المنعزلة في عمق الحديقة وقد دلّت تقاطيع وجهه المنبسطة على الارتياح.

لم تؤثر في هجعته تلك اللطخة وكان هو نفسه لطخة بيضاء وسط السواد العظيم الذي يمثّله هذا العالم الكئيب في مخيلته. طارده السواد منذ خروجه من بيته صباحا إلى أن انزوى بين الأشجار في طرف المدينة.

وتمدّد هناك على بساط التراب والكلأ، وغفت عيناه واستقرّ باله وطابت نفسه. لم يوقظه هديل الحمام المطّرد وتغريد العصافير المتواصل. وقد كان وسط الحديقة مُهران من خيول الشتلاند القزمية. كانا يجولان غير بعيد عنه وبين الوقت والآخر يعلو صهيلهما وهما يمرحان. لم تكن هذه الأصوات خليقة ببثّ الذعر في نفسه بل واصل نومه في سكون وهدأة بال.

فالحديقة تمثّل في خيالِه، الطبيعةَ الوادعة والتي تعاكس في مفهومها جوّ المدينة المزعج. فما إن يلجها حتّى يخمد غيضه وتزول روعته ويعود للحياة معناها فجأة. واستطاعت هذه الحديقة وحدها أن تعيد النظام لمعادلة حياته، وصارت صمّام الأمان الوحيد الذي يحول دون أن يفقد صوابه.

وبينما هو ينعم بأشعّةٍ تنسلُّ بين الأوراق الإبرية، إذ أحسّ بوقع أقدام خفيفة حريصة، تقترب منه. فتح عينيه على مهل ونظر بعين شِبهِ مُوصَدةٍ وقد كان ذلك القادم هو حارس الحديقة.

ألقى هذا الأخير التحيّة وجلس إلى جوار ياسر الذي عدّل جلسته. اقتلع ياسر سنبلة خضراء وحيدة بين الحشائش وراح ينظر إليها نظرة

تائهة. وظلّا ساكتين برهة من الزمن، مطرقي رأسيهما وقد كان سكوتهما يختزل ألف كلمة ثمّ تجرّأ الحارس ليقطع خيط السكوت قائلا:

"كيف حالك؟"

فردّ عليه ياسر مباشرة:

"لست بخير."

وسادت لحظة صمت، كان خلالها يفكّر ويتأهّب كلاعب شطرنج ثمّ أقدمَ قائلا:

" هل عدتَ للعمل؟"

"لا.. قلتُ لك البارحة بأنّي لن أردّ على إشعارهم الأخير."

"وهل اتّصلَتْ بك إدارةُ المستشفى؟"

أطلقَ ياسر تنهيدة طويلة وتبدّت علامات الألم وهي تحتلّ قسمات وجهه، ورغم ذلك ردّ عليه بصعوبة بالغة.

"نعم، ولم أُجب".

ثمّ عادت ملامحه لتُشرق من جديد، وأردف:

"لقد أجبتُ على إشعار المنظمة."

"أيُّ منظمة؟"

"منظمة أطبّاء بلا حدود، أخبرتُك عنهم."

"آه..نعم..ألَمْ تنسَ أمرهم؟ كيف تتركُ أهلك وعملك وتذهب لأدغال إفريقيا؟"

"لقد صارت الحياة عندنا هي الأدغال بعينها. انظر إلى النّاس ومخلّفاتهم. انظر إليهم وهم يعيثون فسادا في الحديقة. حتّى هذا المكان الجميل لم يسْلَم منهم: أكياس، قارورات، أوساخ... إنّ الإنسان صار وحشا كاسرا بل صار أعتى وأخطر من الوحوش، فالوحوش تتصرّف بدافع الغريزة، أمّا النّاس فيقارعون الشرّ وهم يعرفونه."

"ستجد البشر في انتظارك حيثما ذهبت يا ياسر. كُن واثقا من هذا."

"يا صديقي الحارس، لقد سئمتُ من أولئك المترفين الذين أكسبتهم حياة البذخ قوّةً سلّطوها في وجه الفقير والحقير. فصارت مظاهر المدَنية كلّها وسائل تُعينهم على الطغيان، تماماً كالأسُود والنمور التي وجدت في مخالبها وأنيابها عونا لها في افتراس الضِعاف من الحيوان. اختفت المدينة يا صاحبي ولم أعد أرى إلّا الغابة. وانقرض الإنسان أو يكاد،

وما بقيت إلّا الضواري. أمّا المظاهر التي يعتدّ بها الحَضَر فهي خداع بصري، فإذا رأيت بمنظار الحقيقة وجدتَ العالم قد تراجعَ القهقرى لعصور الجهل والظلام."

هكذا قال فريد ولم يجد الحارس سبيلا لمعارضته فأعقب:

"أوافقكَ الرأي.. فرغم أنّي واصلت دراستي وحِزتُ على شهادة جامعية تؤهلني لمنصب أفضل من هذا، غير أنّي أضِنُّ بهذه الوظيفة ولا أقايضها بأي منصب آخر. رغم كلّ هذا، لا أشجّعك لمغادرة أهلك..لا بدّ من وجود عمل يشعرك بالارتياح."

"لا يا صديقي، الأمر ميؤوس منه، قرى إثيوبيا ومَدَاشر الصومال أرحم."

"هل تهرب من بؤس إلى بؤس آخر؟"

"لا بل أفِرُّ من بؤس الضمير إلى نعيمه. هنا توجد الأشياء وتموت الأفكار وتنتحر المعاني. لقد نمت الرداءة في قلوبنا وعقولنا واستحالت بروجا. حتّى عقولنا مناط التفكير صارت حجارة، وصار الإنسان يفعل أي شيء ليحيا وليجد لحياته معنى عندما اختفت كلّ المعاني الحقيقية. وصار يبرّر غاياته بكلّ الوسائل الممكنة."

ثمّ سكت ياسر فجأة واتّجه بصره نحو مكان ما في الحديقة، واستغرق في لحظة صمت وكأنّها سكتة في قطعة موسيقية. وحاول الحارس إيجاد النقطة التي يتّجه إليها نظره. كان ينظر صوب شجرة توت تهتزّ وسط الحديقة

وكأنَّ زلزالا أصابها. وكان يرجُّ أغصانها بعض الشباب ليظفروا بحبّات توت. وبقي ياسر مشدوها فارغ الثغر للحظات. وكان يهمّ بالكلام ثمّ يحجم ويتردّد، ولم يُكمل كلامه حتّى صاح الحارس صيحةً أبعدتهم عن الشجرة المسكينة...وقد تركوا أغصانها مستسلمةً خائرة القوى.

واستأنف فريد الكلام بصوت ضعيف:

"صار الأمر ميؤوسا يا أخي...منذ أسبوع تجلّت لي الحقيقة. رأيتُ حياتي أمامي، ككتاب مفتوح. ورحتُ أتمعّن في نفسي وفيما ينتظرني في هذا الأتون اللامتناهي. كان كلّ شيء واضحا لا يداخله شكّ. رأيتُ نفسي في عملي، مع أولئك الذين يزعمون بأنّهم أطبّاء. كيف يغدو المرء طبيبا إذا كان يضيق بالمرضى، ولا يطيق الإنصات إليهم أو إجابتهم؟! لقد استشرى داءُ الماديّة والنفعية حتّى وصل للطبيب. أليس هذا العجب العجاب!

عيادات الأطبّاء الخاصّة صارت أمكنةً أبعدُ ما تكون من مصحّات تداوي المريض وتسهر على شفائه. بل صار المريض يأتي إليها مُكرهاً...ولما أظهرتُ الشفقة والرحمة وحاولت تأدية واجبي على أكمل وجه، صرتُ محطّ استهجان وسخرية. وصار مكتبي قبلةَ المرضى المسحوقين الذين ذاقوا صنوف الهوان عند غيري من أطبّاء المستشفى. والله يعلم أنّي كنتُ أزيد فوق وقتي القانوني وقتا في سبيل أولئك المرضى، الذين لا طاقة لهم بالمصحّات الخاصّة. ورغم ذلك كنتُ أشعر بالحياة تغمرني من أخمص قدمي إلى قمّة رأسي. كنتُ أتحمّل كلّ المشاقّ التي يلقاها المواطن العادي، في سبيل الهدف النبيل الذي أعيش لأجله. أمّا اليوم وقد غاب ذلك الهدف وتوارى بعيدا، انطلقت المشاكل من جحورها كالذئاب بعدما كنت بمأمن عنها. الفراغ يا صديقي..الفراغ!..وقعتُ في شرك مصيبة أخرى..بعدما اضطررت للتخلي عن عملي، سقطتُ في هذه الهاوية السحيقة المسمّاة: الفراغ. الفراغ ينزعُ عنك تلك العُصابة التي تخفي عن ناظريك الآفات. يُفقدك الحصانة الفكرية ويضعك أمام المعضلات وجهاً لوجه. يحرِمُك من سترة النجاة، ويرميك لقمة سائغة لأسماك القرش."

"يا صديقي..إنّ بعد العسر يسرا، و إنّ بعد الليل الكحيل ينبلج الفجر."

كانت الشمس تقترب للمغيب وتهوي إلى خطّ الأفق عندما قال الحارس:

"انظر إلى جمال العالم، اليوم ينقضي وغدا سيبدأ يوم جديد."

وأجابه ياسر دون تفكير:

"وقد رأيتُ ما فعله البشر بأيامهم الجديدة."

"يا ياسر، انظر إلى الأزهار في عزّ الربيع."

"يا صديقي، لقد ذَوَت تحت أعقاب السجائر."

"يا ياسر، املأ رئتيك من نَفَسِ الغروب."

"وقد امتزج بنسيم السيارات العليل!!"

"اسمع أصوات البلبل تشدو فوق الشجر، وهي تسبّح ربّها ليل نهار."

"هي تشدو هنا أمّا في المدينة فلا شجر. إلّا صوت الضجيج وصراخ البشر."

"انظر إلى النجوم، تطلّ من نوافذ السماء بعيونٍ لامعة."

"لم نعد نميّز بينها و بين الأقمار الاصطناعية، فكم من قمر صناعي حسبناه نجما..ثمّ لم نجده."

سكت الحارس وهو مدركٌ بأنّ صديقه يمرّ بإحدى الفترات الحالكة. وكعادته سيهدأ بعد حين. عندما تصفو سماء ذهنه وتخلو من سحابات الصيف العابرة. بدا ياسر منشغلا من جديد بتلك السنبلة الوحيدة، ثمّ تكلّم وهو يداعبها.

"يا صديقي القديم، لقد تعبتُ وضقت ذرعا. إنّ المسنّات التي تكفلُ الحركة والانسجام في تفكيري قد صدئت. استحالت حياتي إلى رواية كوميدية كلّ شخوصها رئيسيون إلّا أنا!..كيف أواصلُ الحياة و أنا أنظر كلّ يوم إلى قلعة أحلامي تتهدّم تحت معاول الواقع الأليم و كأنّ كلّ أمانيَّ أوهام.."

عاد إلى صمته والحارسُ ينظر إليه بحسرة، يودُّ لو يردّه عن فعلته هذه. وحاول في جهد فكري مستميت أن يجد طرفَ فكرةٍ تثنيه عن الذهاب. وقال له:

"لقد عهدتك منذ سنوات طويلة متمرّدا. كم مرّة أتيتني عازما على الاغتراب وتراجعت بعدما تتكشّف لك أسباب البقاء والصمود. انظر إلى شجرة الصنوبر هذه، هل رأيتها يوماً تتبرّم وقد صارت جدارية

ينحت عليها المتحابّون أسماءهم، واتّخذ البعض من جوارها مزبلة؟ بل هي تزيد كلّ يوم قوّة وكرما."

"يا ليتني شجرة صنوبر!"

قالها ياسر بحرقة.

"أتتذكّر ذلك اليوم الذي أتيتَ فيه تحمل حقيبتك. كنتَ ما تزال عازبا. قدمت إليّ والرغبة في الهجرة تشتعل في نفسك. كانت البطالة أيّامَها تأخذ بخناقك. ومرّ ذلك اليوم، وجئتني بوجه آخر مفعم بالثقة، بعدما جلست إلى أمّك التي أقنعتك بحنانها وعطرِ فؤادها النقيّ."

"رحمها الله..."

قال ياسر وهو ينبش الأرض بعصيّة صغيرة. وأكمل الحارس كلامه:

"وبعدها بأيّام فتح الله عليك بالعمل في المستشفى. ومنذ سنتين، شكوت لي المشاكل التي تغرق فيها في عملك، وعزمتَ على المغادرة مرّة أخرى، ولوَّحتَ من جديد بخِيار الغربة. وسرعان ما تغيّر الأمر عندما لاح في الأفق خبرُ خطوبتك. وتشبّثت بالعمل وصبرتُ كما يصبر الآلاف. لست وحيدا فالكثير من الشمعات تذوب وتنطفئ في الخفاء."

"شمعتي ستنطفئ أمام الجميع إذا لم أغادر."

قال ياسر وأتبعها بزفرة طويلة. وأكمل الحارس كلامه:

"اسمعني يا ياسر ألست ترى بأنّك كلّما مررت بأزمة عزمت على الرحيل؟! والآن كيف ترحل وتترك زوجتك؟ أخبرني!"

"لقد أوصلتُها إلى منزل أبيها منذ أيام."

قال ياسر ونظر الحارس إليه متحسّرا. أحسَّ بأنّه وصل إلى جدار مسدود، وقد استنفذ كلّ الطرق والحيل المتاحة. وبقي كلاهما يشاهد الغروب، والسّماء المحترقة في هدوء وقد خلت الحديقة من زوّارها، وعمّ المكان جوّ من الدّعة والسلام.

"إذن، أطبّاء بلا حدود. أتمنّى لك التوفيق."

قال الحارس وهو يهمّ بالنهوض.

وأجابه ياسر: "نعم"، ونهض بدوره.

وتمشَّيا بخطى وئيدة، نحو باب الحديقة وقد حان وقت إقفالها. وخلال ذلك، رنّ هاتف ياسر. توقّف، أخرج هاتفه، وإذ به اتّصال من زوجته. أجاب وفي ظرف ثوانٍ قليلة، انتقل وجه ياسر من الشحوب إلى

النضرة، وتفتّحت عيناه من الاندهاش والتأثّر. تورّدت وجنتاه وامتلأ جسده حيوية ونشاطا، وكأنّه شخص آخر، أو كأنّ روحا أخرى قد سكنت بدنه. تبادل كلمات قليلة لفظها بحماس وسرعة وهو تحت الصدمة.

وبقي الحارس يتتبّع المشهد بحرص وفضول كبيرين. وعندما أتمّ صديقه الاتصال لم ينبس ببنت شفة، بل أسرع الخطو، وهو تائه النظرات، مسلوب البال.

وقال له الحارس:

"أخبرني ما سرّ هذا التحوّل؟"

فأجابه ياسر:

"زوجتي حامل."

"والآن "أطبّاء بلا حدود" أم ماذا؟"

"لا يا صاحبي، "صابر بلا حدود"، لأنّ هذه المرّة سيطول البقاء."

عندما ينزلُ القَمر

سمع صوتا قادما من الشّمس يهمس له: "لا تفعل، أنا أُمّك..أنا أكبر منك.. اسمع كلامي!".

هذه أوّل مرّة يسمع فيها القمر حديثاً مباشراً من الشّمس، ولقد بدت غاضبةً، تصدر منها ألسنة النيران وعواصف اللهب. لم يسمع أحد صوت الشمس ولا القمر إلّا أنّه مؤخرا قد أسهب الحديث يخاطب نفسه وبصوت عالٍ.

ولقد أمهَلَت الشّمسُ القمرَ وتركته علّه يتوانى ويتراجع عن مراده، لكنّها ما فتئت تسمعه يردّد نفس الحديث. وأخيرا خرجت عن صمتها وخصّته بكلمات خالدة سيتردّد صداها في أرجاء الكون إلى الأبد.

وقد كان القمر مشغولا أثناء ذلك بِنَجْواه وحديث نفسه. لكنّ هذه الكلمات كادت توقف دورانه من الذهول. استغرق تابع الأرض في لحظة صمت، وبَدَا مذهولا من ذلك الصوت العميق السرمدي الذي اخترق الأثير وزلزل سكون المجرات. وكمن يريد التأكّد، قال عبثا في صوت يتخلّله الخوف:

"ماذا؟..لا أفعل ماذا؟!..تريدينني ألّا أخاطب سكّان الأرض؟"

ورَاحَ يكرّر السؤال دون أن يُوفَّقَ لجواب. وقد سعى صوتُ القمر المحموم، هو كذلك بين الأكوان، فهيّج البحار والمحيطات، وكاد يخرج من مداره محاولا الحصول على إجابة، غير أنّه تعقّل مُدركاً عواقب أفعاله.

وبعد إصرار مستميت رضخت الشمس وبصوت عميق حكيم أجابت:

"نَـــعَـــمْ".

وَجَمَ القمر وأخذ يفكّر ويحدّث نفسه من جديد بصوت خافت:

"كيف لا أخاطب أبناء الأرض صديقتي ورفيقة دربي.. لطالما نظر إليّ النّاس بعين حالمة، وتمنّوا المشي على سطحي لعهود طويلة حتّى تحقّق لهم الأمر أخيرا. إنّ البشر يحبوّنني فلماذا لا أحادثهم كما يحادثونني، وهم الذين أفردوا لأجلي الأشعار والخواطر. حتّى من لا يحسن قرض الشعر أو كتابة الخواطر، تراه معلّق النظرات تائه البصر مسلوب اللبّ وفي قلبه ألف عاطفة وكلام وشوق وسلام. ومنهم من يُمضي الليل يتتبّعُ خطواتي في السماء، وأطواري التي تختلف: تارة بدرا وتارة عرجونا قديما.

كيف لا أشقُّ لهم صدري وأعطيهم سرّي وأصارحهم بشجوني وأقاسمهم ليالي وحدتي؟ كيف لا وهم يشبّهون كلّ جميل بالقمر.

لقد صنع البشر لي تماثيل وسمّوها باسمي، بَنَوا القصور والبروج لأجلي.

كيف لا يستحقّ هؤلاء أن أتوجّه إليهم بالحديث؟"

ثمّ خرج القمر عن هدوئه وقال ثائرا مخاطبا الشّمس من جديد:" كيف لا؟ كيف لا؟!!".

وكانت الأرض تردّد أنظارها بين الشمس والقمر وهي تَعِي ما يشجُنُ فؤاد تابعها، كما تفهم جيّدا قصد سيّدة الكواكب السيّارة. ورغم ذلك فهي آثرت الصمت، حفاظا على وشائج الصداقة مع كليهما.

وسرعان ما امتلأ القمر عزما في تحقيق مراده. استجمع رباطة جأشه، وحضّر بضع كلمات تكون جسر مودّة يستهلّ بها حديثه مع عشّاقه وأحبّائه.

في تلك اللحظات كانت آلاف العيون تهيم في قبّة السماء. في ليلة بيضاء من ليالي البدر، راح القمر يطلق أولى همساته مع خيوط النور، فيتلقّاها الشعراء والحالمون والعشّاق وهُواة رصد الكواكب والنّجوم. بدت تلك الهمسات كأصوات خيالية مستحيلة قادمة من العدم.

لكنّها تكرّرت فما إن ينظر شخص تجاه القمر معجبا إلّا وأفشى إليه القمر بعضا من أسراره.

هذه الليلة هي ليلة الثالثة عشر، وقد مضت ساعة منذ بدأ القمر يخطب من منبره ويتحدّث من عليائه فأنصت إليه أتباعه ومعجبوه.

ومِن فرط الجمال والسحر أصيبت النفوس المرهفة بنوع من الجنون والهستيريا والتأثّر بذلك الصوت الفريد الذي لا يشبه صوتا آخر، بل مزيجا من أجمل الأصوات. انساب صوته في تؤدة فنَفِذَ إلى القلب مباشرة متجاوزا الأذن. وكأنّه معزوفة تذوب وسط النّور تتردّد بين أنغامها كلمات تحكي الزمن وتختصر عصورا من الصمت.

إنّها لحظات مجد وانتصار لأفئدة تُؤثِرُ الليل على النّهار، تهوى كواكب الليل ونجومه ولا تملّ من انتظار القمر كلّ ليلة. أمّا هذه الليلة فهي حفلة بل عيد يحتفل فيه القمر عميد الفنّانين بالإحساس وقَدْ حَشد جمهوره ليلقي أمامه عمله الفنيّ الخالد.

امتدّت الثواني الأولى خلال الزمن واضعة قوانين الفيزياء موضع الاستهزاء، لأنّه متى حَضُرت قوانينُ الجمال صارت هي الغالبة. تلك الدقائق الأولى كانت فاتحة لعهد جديد حيث كلّ شيء ممكن. وما

مرّت إلّا دقائق حتّى علم القاصي والداني بأمر وحي الإلهام الذي يتنزّل على كلّ من ينظر إلى القمر.

رأى البدر تلك الأعناق الكثيرة التي تشرئب لرؤيته، والنواصي البيضاء التي ترنو إليه، فهاله الأمر قليلا وارتبك ثمّ استدعى شجاعته وخطب بصوت ملهم عميق ودافئ:

"أنا القمر، يا سكّان الأرض. يا من يحبّون البدرَ وليساليه. يا من يعيشون على الكوكب الأزرق، يا بني آدم، يا مخلوقات الله الكريمة، لقد أبَيتُ إلّا أن أخاطبكم.

لقد سمعت أشعاركم، أَنْصَتُّ إلى أحلامكم ورأيتُ عيونا تدمع وهي تناجيني. كلّما استقبلني أحدٌ من خلال نافذته، أو تطلّع إليّ وهو يمشي في السُّهول المفتوحة على السماء، تمكّنتُ من رؤيته والاستماع إلى خواطره. فمن خلال أعينهم البارقة التي تلمع وهي تتجّه نحوي أستطيع الوصول إليهم. هل تدرون أيّها البشر بأنّي أنظر إليكم بدوري؟".

(تعجّب كثيرون من هذا الحديث، لمّا علموا أنّ القمر ينظر إليهم كما ينظرون إليه.)

تواصل حديث القمر نصف ساعة من الزمن. كانت أبصار النّاس شاخصة إليه وأجسادهم ثابتة لا تتحرّك. ولمّا فَرِغت حصّة الإلهام الأولى وانفضّت الجماهير عاد القمر لوَحدته، يراقب الأرض من جديد، وقال في سرّه: "اليوم بدأ تاريخ جديد سأكون فيه قائد البشر وملهمهم".

وحقّا كانت تلك الليلة سابقةً لا قبل للنّاس بها. وراح بعض النّاس يلهجون بهذا الحدث الغريب. وأخذ آخرون يكذّبونهم مُنكِرين. وانقضى الليل وهم يسترجعون ما قاله لهم كوكب الليل. فكتب الشعراء قصائد جديدة أبلغ وأطول. وجلس العشّاق يحتفلون بنشوة دامت نصف ساعة وسيدوم أثرها في قلوبهم للأبد.

وفي الغد، أي ليلة الرابعة عشر، التفّ الكلّ حول مسرح السماء ينتظرون مُلهمهم، وكان الجمهور أكبر. توجّهت العيون في منتصف الليل نحو القمر وقد استوى على بساط الليل المرصّع بالنّجوم. ومع أمواج الضوء تسرّب الحديث، وتسلّل إلى الأفئدة العطشانة المولعة الولهانة. وقال:

"يا معشر البشر حدّثوني.. أفصحوا عن بنات صدوركم، وخلجات نفوسكم. بوحوا إليّ كسابق عهدكم ولا تضعوا حاجزا بيننا."

(صُعق أحبّاء القمر وعشّاقه لأنّه طلب منهم مشاركته في الكلام، وكأنّه يحتاج إلى ذلك)

تشجّع أحدهم وقال بنبرة حالمة:

"ما سرّ ضوئك الذي ينيرُ لياليا، وهَالَةُ الوقار والعظمة التي تحيط بك وقتَ الاكتمال؟"

تفرّس القمرُ في وجه الشابّ الحالم بينما ينظر إليه بمقلتين تتغرغران بالدّمع ذهولا وتأثّراً. فأراد أن يُثلجَ صدره وأن يمحو تلك الدهشة المستقرّة بين قسمات وجهه. وقرّر أن يميط ستار الجلال والجمال الذي يضفي عليه الهيبة، وأن يقترب أكثر لمحبّيه. وراح يشرح الظواهر الفيزيائية التي تجعل منه القمر المضيء الذي نعرفه، نافيا عن نفسه صفة الإنارة، قائلا: "أنا لا أزيد عن كوني مرآة عاكسةً لضوء الشّمس".

وبعد السؤال الأول الذي أسهب فيه القمر الشرح، تجرّأ الكثير للسؤال وهذا إحدى الأسئلة:" ما سرُّ تلك البقع السوداء التي تميّز سطحك؟".

أخذ القمر يكشف عن ميزاته وخصاله. فتكلّم عن البقع السوداء التي تلوّن صفحته، والتي لطالما غرقت في عمقها المقَلْ. وسأل آخر: "احكِ

لنا عن سلطانك على البحار والمحيطات". فتكلّم القمر عن جاذبيته، ودورها في حركة المدّ والجزر.

واستفسرَت فتاة مصابة بسحر القمر وتعاويذ جماله قائلةً: "أحبّك في كلّ أطوارك، هلالا، نصف قمر أو بدرا. أخبرني عن حالك وإحساسك في كلّ طور يا رفيق لياليَّ الخاليات".

فأجاب بنبرة الصديق، بالسرعة والعفوية المعتادة:

"أحسُّ بنفس الشعور في كلّ طور لأنّي أبقى على حالي في كلّ وقت، غير أنّكم أنتم من تلحظون ذلك الاختلاف."

(تعجّب الكثير للنبرة الجديدة التي يخاطب بها القمر سكّان الأرض).

استمرّت الليلة بنفس المنوال. الوالهون يسألون والقمر يجيب. ودام ذلك ساعات الليل كلّها.

في الليلة الخامسة عشر، طلع البدر بكامل حلّته وأتمّ رونقه وجماله ونادى في النّاس: "أين أصحابي؟ أين أحبابي؟"

كانت السّماء ملبّدة بالغيوم ومع ذلك راح القمر يكابد العناء للخروج من بينها، ليلقى جمهوره.

وأطلّ كوكب الليل من بين السحب. الكثير من النّاس يحبّون ذلك الاختراق الجميل المفاجئ والمنتظر في نفس الوقت. بل ليس أجمل لدى مراقبي السماء وأحباء القمر أكثر من رؤية ذلك المنظر السحري. وكأنّ القمر يلعب معك الغميضة. تسلّل طيف القمر من وراء السحب وهو يحاول جاهدا إيجاد فجوة بينها ليلتقي من جديد بسكّان الأرض، وكي لا يتأخّر على جمهوره.

في تلك الليلة لم يكن الحشد كبيرا. كان البعض يستمتع بالمنظر الجميل. إلّا أنّه بعد فترة، انقشع السّحاب ليستقرّ القمر على عرشه في السماء ويستمتع بالرفقة الطيبة. ولأوّل مرّة، لاحظ بأنّ الحضور أقلّ من المعتاد، وعزا ذلك لتأخره، واكتفى بالجمهور المتواضع الذي ارتفع بهامته نحوه.

ولاحظ غياب ذلك البريق المعتاد في عيونهم الساهرة، وتلك الملامح المستسلمة في وجوههم الحائرة.

افتتح البدر هذه الليلة المقمرة البيضاء بأحاديث الحسن والجمال، وقد كانت تلك الليلة آية في الكمال، ثمّ سأله بعض الواهين وأجابهم دون تردّد.

مرّت الليلة أقصر من سابقتها وقد تداعى كثيرون للنوم ولم يكملوا السهرة حتّى الفجر. وما أن بلغ الليل أقصاه حتّى وجد القمر نفسه شبه وحيد، وقد انصرف الشعراء والعشّاق والحالمون والواهون والفلكيون للسلطان الآخر الذي ينافسه كلّ ليلة وهو الكرى.

وبعد يوم آخر سطعت فيه الشّمس ومارست فيه سطوتها على الأرض بصمت وقوّة وحزم، غادرت تاركة السماء والأرض للقمر.

ليلةُ السادسة عشر كانت رائعة. لم تزل الهالة تلفّه بالوقار والهيبة، والسماءُ الصافية قد أفسحت له المجال وحده. وصال ضوء القمر في أجواء العلا وجال في أرجاء الأرض يبعثُ الحياة على الخمائل والسهول. والبلابل تشدو والجنادب تغنّي، والنّاس يسْعونَ تحت أطياف الشَّجر يلتمسون مكانا ساحرا في الطبيعة. غير أنّ هؤلاء على غير العادة، لم يكونوا ينظرون نحو القمر وكأنّه لا يزيد عن مصباح كهربائي. هذا القنديل الذي يضيء لهم حياتهم ويكفل لهم التحرّك بين الأحراش دون خوف.

خَلَت النوافذ من الساهرين وأقفرت ساحات الوله بسيّد الليل والإلهام. لقد صار الرفيق الذي لم يضِنَّ يوما بمصاحبة الوحيدين والمشجونين ومواساة المكلومين ومؤانسة المجروحين، صار اليوم بلا رفيق.

نزل القمر من كبريائه ومن عليائه في رابع ليلة. كشف عن غموضه وسحره وجماله. لكن صار تجلّيه أمام الأشهاد روتيناً ولم يعد ظاهرة خارقة.

حزن القمر وبكى. وفي ثنايا الكون دوّت صرخة سمعتها الشموس والأقمار في المجرّات البعيدة. وأَنَّ البدر وأحسّ بالوحشة وبينما هو كذلك إذ سمع صوت الشمس تقول له:

" هل تظنّ أنّي سأظلّ الشمس لو أنّي فعلت فِعلتك؟ يا ليتك ما نزلت يا قمر!"

غُربال

كانوا يحقِرونه ولا يؤهّلونه لاحتلال أيَّ مرتبة فضلا عن القدوم في طليعة الفائزين. كان "غُربال" جوادا عربيا أفحما أصيلا نحيلا، برأسه الصغير ورقبته الطويلة وعضلاته الضامرة البارزة وكأنّ الريح قد نَحَتها من العظم. هيئته المتواضعة لا تُشجّع على الرهان عليه في سباق أو الاتِّكال عليه في حفلات "الفانتازيا" التي تقام في عدة مناطق وقد ظلّت من التقاليد الشعبية الجزائرية.

لا أعرفُ قِصّةَ اسمِه الغريب: "غُربال" فقد كان يحمله حين اشتريتُه، لكنّه بلا شكّ مرادفٌ لسنوات الخير والعطاء في حياتي. صادفتُه أوّل مرّة مُهرا، يجرّ محراثا في الحقل، يلقى العتاب والسوط في جَلَد وصبر. عَزَّ عليّ فاشتريته وضممتُه لبعض الخيول الفتية.

عجّ الإسطبل بصهيل الخيول ودبّت الحياة في ميدان الفروسية الذي كانت حواجزه وممرّاته وحظائره تنتظر قدوم تلك الكائنات القدسية على أحرّ من الجمر. كافحنا لأجل هذا المكان كما نكافح في هذه البلاد في سبيل كلّ شيء ذي قيمة. ميدان الفروسية مسعى آخر كنّا

نطمح إليه ونذوي ونحن نصبو إليه. وبعد طبقات من الغضب والحزن والصبر ظفرنا بميدان للخيل والفرسان.

نعم توليفة الحياة هي كفاح كفاح وكفاح. نموت في حياتنا مرّات عديدة قبل أن نموت موتتنا النهائية. لكن وبما أنّنا نحصل . في بعض الأحيان . على مرادنا في آخر المطاف فنحن ننسى المعاناة والوقوف في الطوابير والمواعيد الملغاة الكثيرة، والملفّات والوثائق والشروط التعجيزية التي لا تنتهي...ننسى كلّ هذا وأكثر، ونحمدُ الله ونعيشُ أيّاما بعد ذلك في رضا وهناء وهكذا دواليك. حياتنا جزرٌ من الهناء وسط محيطٍ من المتاعب والشقاء. وكالجزر الراسخة وسط المحيطات تبقى لحظات الهناء كافية لتعطي لأعمارنا البائسة اسم "حياة".

وجعلنا من ذلك الميدان ناديا للفروسية وجنّةً غنّاء يتوافد إليها الزوّار وكأنّها طيور تؤوب إلى أعشاشها بعد يوم من السعي.

ذلك المكان يشكو منذ سنوات طويلة في صمت. فقد تربّت فوق أديمه الأشواك وسَدَّت ممرّاتِه الأوساخ. وتحوّل الإسطبل إلى مكانٍ يأوي العفن والحشرات بدل الخيول. ونحن اليوم نودّ استرداد نكهةَ الماضي وإعادة الألوان للوحةٍ غابت عنها الحركة والحياة.

أحاول إعادة تركيب الصورة القديمة كما كانت تقريبا. لا ينقصها إلّا ذلك الفارس الشابّ الذي كان يحرّك الجواد بهمسة أو لمسة وكأنّه دمية في يده. وكنتُ منذ سنوات ذلك الفارسَ ومرشّح النادي الأول للمشاركة في المسابقات.

وينقصني "غُربال". آه من "غُربال". بعد المحراث الذي جرّه مهرا و"الفانتازيا" التي لعبها يافعا، أفنى عمره الباقي معي.

لم تكن له مواصفات الحصان المرشّح للفوز كحالي تماماً. لستُ من الطبقة البورجوازية وأمثالي من أبناء الأسر المتواضعة البسيطة الذين يتصبّبون عرقا لينالوا لقمة عيشهم، لا يصلُحُون . حسب زعمِ البعض . لهذه الرياضة النبيلة.

فأنا يومَ كنتُ فارسا أجوب ميادين الخيل بفخر، كان يعرفني النّاس بائساً. بلدنا هو الوحيد حيث الفارس الحقيقي الذي تؤهّله مواهبه الطبيعية لأن يتطوّر في سلّم النجاح، يظَلُّ ظِلّاً باهتاً إلى أن يتلاشى.

ورغم ذلك، ولأنّ الفوز ينبعُ من رحم الحاجة، فقد تبلور ذلك البؤس الذي تفاقم طويلا داخلي في بوتقة الطموح والثورة والأمل ثمّ التقى هذا الناتج مع "غُربال". كنّا لا نروي ظمأ الأعين خارج المضمار وكأنّنا

نُذكِّر النّاس بقصّة دون كيشوت وحصانه المسكين، أمّا داخل الميدان فنعيد الاعتبار لأنفسنا وذوينا.

كان "غُربال" يثِبُ برشاقة ويتجاوز الحواجز كلَّها وقُبيلَ الحاجز الأخير قُبالةَ الحكّام نزيد السرعة ثمّ نرتفع عاليا وعلى ارتفاع مِترين أُصدرُ صرخةَ الحريّة ويرتفعُ من حنجرة "غُربال" صهيلٌ ينتشر في الأجواء. كان هذا توقيعنا الخاصّ. كنّا نشارك لأجل الانتصار فحسب، لا لأجل المال بل لأجل العزّة.

خُضت مع "غُربال" مسابقات عديدة في ميادين الفروسية، وحِزتُ على ألقاب كثيرة ولفتتُ أنظار الفاعلين في مجال الفروسية في بلادنا. لم يرفُض يوماً ملازمتي، ولقاء وفائي له واعتباره جوادي الوحيد، كان يحقّقُ أعجوبةً كُلَّما ولج مضمار المسابقات.

أنا اليوم كهل أمّا رفيقي "غُربال" فمات منذ سنوات طويلة بعدما أتمّ عشرين سنة عنوانها الكفاح. بدأها عبداً في حقل وأكملها وهو يستريح استراحة المحارب عقب منافسة ناجحة حصدتُ فيها لقبي الأخير.

وعندما كان يلفظ أنفاسه الأخيرة كنت أحتفل بلقبي الذي فازه لأجلي. لطالما تخيّلته وهو فوق فراشه العشبي في الإسطبل، وقد مُشطت جدائل شعره البنيّة ونُظّف جلده اللامع بعناية، وعلى صفحة

وجهه ترتسمُ ابتسامة. يبتسم لأنّه حقّق حلم الجواد العربي الأصيل. كتبتُ على جدار جناحه الخاص: "يعدو سريعا كالزمن، ويقفز عاليا كالبُراق".

فارق الحياة وضاع معه سرّ فوزي. كان هو سرّي وكنتُ أنا سرّه. كُنّا مزيجا ثوريا ضدّ تهميش الضعفاء. خلّصني من بؤس الشوارع وحرّرته من ظلم المحاريث.

بعد تلك المنافسة، وبعد فراق "غُربال"، انهالت عليّ عروضٌ مغرية من خارج الوطن. كنت لا أزال في حداد، وثورتي كانت قد اندفنت مع "غُربال".

لم أستطع تلبية نداء النجاح، كُثرٌ فعلوا أمّا أنا فبقيت. لا أدري لماذا وقد كانت الفرص السانحة تدقّ على أبوابي بقوّة. ربّما لأنّ لا أحد يفهمني غيره، من يتفهّم هزالي وقبحي غير هزاله وقبحه؟ أنا و "غُربال" كنّا خليطا لا يُفهم.

كنتُ فارساً حقيقيا، لكنّي تحوّلتُ إلى ما يشبه دون كيشوت بعد أن تخلّيتُ عن حلمي ورُحتُ أحكي أمجادي وأجترّ تاريخي وأتحسّر على الأطلال كلّ يوم وفي كلّ مكان. وهكذا يُصبح الآلاف من الموهوبين، يخمدُ التحدّي في أعماقهم ويأفُلُ البريق في أعينهم جَرَّاء الاستسلام.

سنواتٌ طويلة خَلَت وما بَرحتُ الوطن. أعاني كما يعاني الجميع في صمت. أعيش كالطحالب في سكون المحيطات، أمتص أشعة الشمس وأمشي في تؤدة وأحيانا أجري لكن بدون هدف.

وبذلتُ آخر جرعات ثورتي لقاء الحصول على النادي. من يدري قد تدبّ الحياة فيه مرّة أخرى!

هذه هي الحياة، يذهب جوادي المُطهّم "غُربال" ويأتي بعده جواد غيره، يذهب شبابي ويخلفه شباب غيري، والوطن سيبقى للأبد.

العرقُ دسّاس

كنتُ في مزاج لا يُشجعّني على لعب دور البطل، كما أحببتُ دائما أن أكون فقد تخيّلت نفسي رجلا خارقا، منذ سنّي المبكّرة وحتّى ودّعتُ سنوات المراهقة. ثمّ أدركتُ بأنّها أوهامٌ شاركني إيّاها الملايين من البشر، الذين تخيّلوا أنفسهم مركز العالم، والشخصية التي تدور حولها أحداث الكون. وتكسّرت بقايا أوهامي الأخيرة عند عتبات الجامعة، عندما عانقتني البطالة بملء حضنها، وقابلتُ الخيبة وجها لوجه وبدون وساطة.

في مساء يوم كغيره من الأيّام المتشابهة، ركبتُ سيّارة أجرة، ميمّما وجهي صوب الملعب، لطرد ما أمكن من الذبذبات السلبية.

كان يجلس أمامي طفلا بالكاد يُرى. ومن خلال مئزره الأزرق فهمتُ بأنّه قد نجا لتوّه من قبضة المدرسة. بدا عائما بجسده المتضائل في سروال جينز فضفاض، يلبس قميصا صوفيّا يغطّي الرقبة وجزءاً من وجهه الصغير المطأطئ من الخوف والترقّب لعاصفةِ العتاب.

كنتُ أجلس وراءهما في سيّارة الأجرة. وكان الأب متشنّجا مضطربا يحاول استجماع كلّ خبراته، وتجاربه المُستقاة في هذه الحياة، ليعصرها ويعطيها لابنه جاهزة طازجة. أشياءٌ كثيرة أراد أن يبلّغها إيّاه، لكن زخم الأفكار وازدحام الكلمات حالَ دون تمرير المشعل في سلام ووئام.

ردّد نظره بين ابنه والطريق، بعينين غائرتين في تجويفهما، حائرتين من فرط التساؤل، خائرتين استنزفت السياقة بريقهما. وانفرط عقد الرُّشد، وزلّ اللسان فانجرفت كلمتان مع سَيلِ الغضب:

"أين طاقيتك؟"

قال الابن الذي ترتعد فرائصه: "سرقوها منّي".

وردّ الأب مضطرم الوجه صارخاً، ناسيا أمر الطريق التي كان يختزلها دون أن يراعي لها انتباها. أتذكّر بأنّي كنتُ أراقبها بَدَلَه، عاضّا على شفتيّ متمنّيا لو ينظر أمامه، لكنّ جبروت الغضب استبدّ به، وشدّ بتلابيبه فاندفعت السيّارة بجنون.

لا أدري كيف استطاع السياقة مكمّم البصر والبصيرة، لكنّه تدبّر أمره، هكذا صار معظمنا يقود وهكذا حِزنا على أولى المراتب في الكوارث.

ثمّ وجدتُ نفسي وقد انشغلتُ بالولد، وبوابل العتاب الذي راح أبوه يُكيله إيّاه، صابّا جامّ ثورته عليه. قال الأب محدّقا في ابنه شزرا: "ألم أعهد إليك يوما بهذه الكلمة: إنّ النّاس ذئاب، وعليك أن تصير ذئبا مثلهم، تعضّ وتعوي؟".

فجأة وكأنّ جرسا دقّ في رأسي، فقدت اهتمامي بالطريق، وشهّيتي في ممارسة الرياضة، وصرتُ كلّي أذنا صاغية لهذا الناصح المجنون، الذي راح يلقي على مسامع ابنه قولا ثقيلا. وما الطفل لو رأيتَه إلّا حَمَلا وديعا، لا تكشفُ سماته غير الدلال والخوف والخجل.

ثمّ قلت في نفسي:" أليسَ هذا الرجل كمن يسكبُ الماء في رمال الصحراء؟ لن تصيب كلماته مرماها ولن تستقرّ في ذهن ابنه ولو استعمل كلّ تقنيات البرمجة اللغوية العصبية لزرعها في رأسه. فالأب لن يفلحَ في تغيير ابنه إلى الصورة التي يرومُها، مثلما لا يستطيع أحدنا تحويلَ حَملٍ إلى ذئب. كما أنّ براءته وصفحةُ نفسه البيضاء تأبى أن يُعكّرها كلامٌ كهذا.

وهكذا تدخّلتُ. أنا دائما أتدخّلُ في مثل هذه الظروف، وهذا يعودُ لطُموحي القديم، أقصد البطولة. لكن أيُّ بطولة؟! الأبطال الآن هم

الذين لا ينحشرون في أمور غيرهم فلا يسمعون ما لا يرضيهم! وَيَاليتَني استوعبتُ هذا الدّرس باكرا!!

هي نقمة ولعنة، أتحدّث عندما يلوذ الكثيرون بالصمت دهاءً منهم وحكمة. كان تدخلّي مغامرة لأنّ الأب كان في مهمّة شبه مستحيلة مع ابنه الذي لم يفقه شيئا ممّا يقول، وكنتُ أنا البَهَار اللّاذع الذي زاد طعمَ الغضب حدّة.

"سامحني يا سيّدي لكن النّاس ليسوا كلّهم ذئابا".

قلتُها وأنا أحسُ نفسي محشورا في فوهة مدفع. وقال لي منتفخ الأوداج، ناظرا إلى ابنه، يجيبني من خلاله:

"ارمِ يا ولدي شيئا في الساحة في وقت الاستراحة وانظر ماذا يجري!"

وأجاب نفسه بنفسه بسرعة:

"سيختطفونه في لمح البصر، وأبصُم لك بالعشرة على ذلك."

لا أتذكّر تفاصيل حوارنا بحذافيره، فقد جرى ذلك قبل سنوات عديدة. لكنّ ذلك الحادث علِقَ بذاكرتي كذبابة طائشة في شبكة عنكبوت. وخلال الأعوام الماضية، عندما يزور خيالي طيفُ ذلك الحملِ الوديع، أتساءل: "ماذا حلّ به؟"

لم يأتني الجواب سريعا، ومرّت سنوات قبل أن يتأتّى. حدثَ ذلك قبل أيّام قلائل عندما ركبتُ سيّارة أجرة في ظروف مغايرة تماما، لأنّ حضن البطالة كان قد فارقني، تاركا حضن العمل الدّافئ محلَّه. وكان الفرق كبيرا بين الحضنين.

جلستُ في نفس المكان، في الوراء على يمينه. لمحتُه وعلى الفور عَرِفته. كان يُقِلُّ عجوزين، فرُحتُ أتربّصُ خُلوّ السّاحة لأسأله عن حال ابنه. وخلال الرحلة القصيرة رحتُ أخاطب نفسي:" أهذا الشخص ذاته؟ لا أظنّ ذلك"، لأنّي فوجئتُ بشخص آخر تماما. فإذا بي بسائق سيّارة أجرة يعامل زبائنه معاملةً راقية جدّا بل في منتهى الأدب واللّباقة. وارتسمَت ملامحُه الطبيعية على وجهه وقد كانت الطِّيبة عُنوانها. وتساءلتُ مرَّة أخرى:" هل هذا حقّا هو الهرّ الثائر الذي كاد يلتهمُ قُطيطَهُ الصّغير على مرأى منّي ومسمع؟"

أوصلني السّائق الرّاقي إلى المنزل، وفنّد لي شكوكي، فهو نفسه ذلك النّاصح المجنون. واستفسرتُ عن ابنه فقال لي: "لم يتغيّر كثيرا. هو لا يزال طفلا متراخيا. لقد كَبُر وهو يدرس الآن في الإكمالية. والبارحة فقط ضيَّع قلنسُوته، التي اشتريتُها له من فرنسا."

وتحدّثنا قليلا فاكتشفتُ بأنّه خريج جامعي، وبأنّه متحصّل على شهادة عليا في الكيمياء البيولوجية، وزيادة على ذلك فهو يتقن لغات عديدة. غير أنّه واجَه العديد من المطبّات التي أبعدته عن ميدان تخصّصه وجعلته ينحرف عن مساره الجامعي بزاوية كبيرة.

وهذا ما جعل أملَه في النّاس يخيب وثقته فيهم تتزعزع. فكثيرا ما يرتطم صاحب الأخلاق الدّمثة والقلب النقيّ بجدار من القسوة والغلظة، لا لشيء إلّا لأنّه يتوقّع من النّاس نفس المعاملة التي يسديها لهم.

ثمّ شكرني السّائق على اهتمامي وغادر، لكنّي فهمتُ الأحجية، فالرّجل الذي قابلته في ذلك اليوم الهائج، كان غاضبا من نفسه. يشتعل غيضا لأنّه كلّما تطلّع في وجه ابنه رأى نفسه، كمن ينظر إلى المرآة.

ولهذا شاهدتُ حينها حَمَلا وديعاً يزأرُ على ابنه الحمل الصغير، خشيةَ أن يتكرَّر معه سيناريو حَياتِه. لكنَّ العرقَ دسّاس!

الفهرس

نداءُ صلاحِ الدّين	5
كلماتٌ على جبينِ البؤس	13
مَصِيرُ يَوم	21
على ضِفاف الجُنون	41
القبو	47
صابر بلا حدود	60
عندما ينزلُ القَمر	72
غربال	83
العرق دساس	89
الفهرس	95

... ليلةُ السادسة عشر كانت رائعة. لم تزل الهالة تلفّه بالوقار والهيبة والسماء الصافية قد أفسحت له المجال وحده. وصال ضوء القمر في أجواء العلا وجال في أرجاء الأرض يبعثُ الحياة على الخمائل والسهول. والبلابل تشدو والجنادب تغني، والنّاس يسعَوْن تحت أطياف الشجر يلتمسون مكانا ساحرا في الطبيعة. غير أنّ هؤلاء على غير العادة، لم يكونوا ينظرون نحو القمر وكأنّه لا يزيد عن مصباح كهربائي. هذا القنديل الذي يضيء لهم حياتهم ويكفل لهم التحرّك بين الأحراش دون خوف .

خَلَت النوافذ من الساهرين وأقفرت ساحات الوله بسيّد الليل والإلهام. لقد صار الرفيق الذي لم يضِنَّ يوما بمصاحبة الوحيدين والمشجونين ومواساة المكلومين ومؤانسة المجروحين، صار اليوم بلا رفيق ...

ISBN978-9931-615-54-5

Elmouthakaf2@gmail.com